

"رؤية العالم عند الأستاذ الإمام"

دراسة تحليلية نقدية

(ورقة أولية)

أ.د. سيف الدين عبد الفتاح

أستاذ النظرية السياسية والفكر السياسي

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية

جامعة القاهرة

نوفمبر 2005م

- مقدمة.

- أولاً- إشكالات نظرية ومنهجية وتطبيقية: المفاهيم الأساسية بين المدخل المنجي في النص المترابط وأصول رؤية العالم (النص وعالم الأفكار).

(1) النص المترابط وعناصره الأساسية.

(2) رؤية العالم عناصرها التأسيسية ومنظومتها المعرفية والمفاهيمية.

- ثانيًا: معمار رؤية العالم عند الشيخ الإمام

(1) التوحيد: رؤية كلية للعالم وقيمة لا تقبل التصاعد.

(2) ثلاثية الإنسان والكون والحياة وعناصر الساحة الحضارية.

(3) ثلاثية الاستخلاف والتركية والعمران: الأصول الواصلة بالرؤية التوحيدية.

(4) المنظومة السباعية وتشكيل رؤية العالم:

(أ) العقيدة الدافعة.

(ب) الشريعة الرافعة.

(ج) القيم الحاكمة والفضائل الفاعلة.

(د) الأمة الجامعة.

(هـ) الحضارة الفاعلة (التمدن والعمران).

(و) السنن القاضية.

(ز) المقاصد الحافظة.

(5) رؤية العالم بين النموذج المعرفي وبنية المشروع الإصلاحية.

(أ) النموذج المعرفي لدى الأستاذ الإمام.

بأركانه الأربعة وسقفه في رؤية العالم.

(ب) المشروع الإصلاحي وبرنامج الإصلاح التعليمي والتربوي.

- ثالثاً- محمد عبده بين رؤيته الإصلاحية ورؤيته للعالم: الحق المر والنقد المر: رؤية نقدية في نص.

المقدمة:

البحث في رؤية العالم لدى الأستاذ الإمام تتضمن معماراً من ثلاث نقاط رئيسية، الأولى تحاول تقديم الرؤية المنهاجية، والثانية تقدم معمار تلك الرؤية للعالم في تأسيسها التوحيدي ضمن ثلاثية الرؤية الكلية (الإنسان والكون والحياة) والرؤية الواصلة المتمثلة في (الاستخلاف والتزكية والعمران)، والمنظومة السباعية المشكلة لرؤية العالم من عقيدة دافعة وشرعة رافعة وقيم وفضائل حاكمة، وأمة جامعة وحضارة فاعلة وسنن قاضية، ومقاصد حافظة، تحاط هذه المنظومات الكلية بنموذج معرفي له أركان أربعة (الإطار المفاهيمي والإطار التحليلي وقواعد التفسير والإشكالات الأجدر بالتناول)، وفي سياق معمار هذه الرؤية نتج مشروعٌ إصلاحيٌّ وبرنامج تربوي وتعليمي. وكان من المهم أن نربط بين تلك الرؤية الإصلاحية والرؤية للعالم، في سياق قد يقوم انتقاد التنزيل وتوقيع هذه الرؤية الإصلاحية على أرض الواقع وما طال ذلك من سلبيات وما تركه من استدراقات في هذا المقام.

أولاً- إشكالات نظرية ومنهجية وتطبيقية

نحن أمام بعض من الإشكالات النظرية التي ترتبط بالمدخل إلى هذا الموضوع والإطار المنهجي والنظري، فضلاً عن الإشكالية التي ترتبط بإمكانية تطبيق ذلك (النظري) في إبراز رؤية متكاملة لهذا الموضوع شديد الخطورة والذي يتعلق برسم صورة كلية "لرؤية العالم".

وقبل الحديث عن هذا يحسن أن نتحدث عن واقع دراسة الأستاذ الإمام من ناحية وواقع دراسات رؤى العالم في السياقات العربية من ناحية أخرى.

* أما عن دراسات الأستاذ الإمام فقد غلب على بعضها بُعد سردي وترجمة لسيرته من غير الغوص في أفكاره، بينما انطلقت دراسات أخرى لدراسة فكرة هنا أو هناك عن الأستاذ الإمام؛ بعضها ينتمي إلى دائرة الفلسفة، وبعضها يدخل في مجال التربية، وبعضها يمكن إسناده إلى مجال دراسات الإصلاح.

وظلت هذه الكتابات تعبر عن نظرة تجزئية لمشروعه الإصلاحية من دون النظر المعمق إلى طبيعة الرؤية الكلية التي تقدم عناصر شبكته التفكيرية، فضلاً عن أنساق المعرفة والقيم وغير ذلك مما يدخل فيما استقر على تسميته برؤية العالم World View.

وخروجاً على إطار النظرة الجزئية والنظرة التتبعية لمسيرة حياته، يأتي هذا البحث ليكون تلك الخريطة المعرفية الكلية للأستاذ الإمام وشبكة العلاقات البينية فيما بين مفرداته وأنساقه المفاهيمية.

* أما عن دراسات رؤية العالم فمن المهم أن نشير إلى أن تلك الدراسات في الأدبيات الغربية قد شاعت وذاعت، ليس فقط على المستوى التنظيري ولكن كذلك على المستوى الميداني، وعبرت

تلك الدراسات عن نزعة فلسفية تجريدية في تنظيراتها، وعن نزعة إمبيريقية فردية(*) في دراساتها الميدانية.

وواقع الأمر أن دراسات رؤية العالم في الغرب على أهمية ما أشارت إليه من ضرورة رؤية وتحليل البنى الفكرية والمعرفية الغربية وضرورة التعرف على أصولها التكوينية والفلسفية، إلا أنها في حقيقة الأمر لم تجمع في أداتها بين رؤى للعالم ذات طبيعة تنظيرية مختلفة وارتباطها بمشاريع إصلاحية تطبيقية - كما هو الواقع في دراسة مثل دراسة الأستاذ الإمام.

* أما الدراسات العربية فقد ظلت عالية على الدراسات الغربية في هذا المقام لا ننطلق من اجتهاد حقيقي يؤصل المعاني الشاملة والمتكاملة لرؤية العالم في هذا المقام؛ بحيث تتداخل الأنساق العقيدية مع الأنساق المعرفية مع أنساق السلوك وأنساق المقاصد، وتتربط في كيانها أصول العقيدة مع قواعد الشريعة ومع أنساق القيم وأصول الفقه الحضاري، وبناء الأمة، والسنن القاضية وتفعيل المقاصد العامة، فضلاً عما تولده من أنساق نظرية ومنظومات مفاهيمية وأطر تحليلية وتفسيرية وإشكالات أجدر بالتناول .. كل هذه الأمور التي تتعلق برؤية العالم إنما تقدم هذه الرؤية بحيث تتأكد وتترسخ في أصولها وتتعدد في فروعها وأكُلها.

إن هذا الجمع بين الثابت والمتغير في "رؤية العالم" من الأصول المعرفية التي يجب أن تجدد النظر فيه من غير أن تبدد أو تجمد.

في إطار هذه الرؤية الموجزة على عجل لحال الدراسات في موضوعنا هذا، يأتي ذلك الاهتمام بحل إشكالات ومصادر النقص فيها من خلال إطار تنظيري ومدخل منهجي ومحاولة أولية؛ وهو أمر يحدد لتطبيقات فعلية لهذه الرؤية التي تصور هذه الدراسة ومهمتها، إذ لا تقدم

(*) أي أنها تقوم على دراسة رؤية العالم لدى الأفراد، ومن المهم أن نؤكد أن مفهوم رؤية العالم هو في غالب أمره يعبر عن صيغة جمعية وجماعية حتى إن عبر عنها الفرد.

دراسة كلية تطبيقية لذلك الموضوع بل تقدم نموذجًا لهيكله رؤية العالم، ليس فقط لدى الأستاذ الإمام ولكن لدى أمثلة كثيرة ممن كانوا يمتلكون رؤية العالم ومشاريع إصلاحية كبرى.

ومن هنا فإننا لا بد أن نستعرض بعض القضايا التي تتعلق بإشكالات المنهج من ناحية، ثم إشكالات التنظير من ناحية ثانية، ثم إشكالات التطبيق من ناحية ثالثة.

أما إشكالات المنهج:

فإنها تشير -ومن كل طريق- إلى صعوبة استنباط وتحليل وإعادة ترتيب ما يسمى برؤية العالم من خلال كتابات كثيرة متناثرة قدمها الأستاذ الإمام في هذا المقام. ورغم تلك الجهود الجليلة التي قام بها أساتذة من أهل العزم مثل أستاذنا "الدكتور محمد عمارة" فأخرج ما أسماه بالأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، فإنها -وإن وفرت وعاءً واسعاً من المادة المرصودة التي تنسب إلى الإمام، إلا أنه لا يمكن الاكتفاء بمثل هذه التصنيفات التي استندت إليها تلك الأعمال الكاملة وتصنيفها إلى كتابات اقتصادية واجتماعية وسياسية، وغير ذلك من تصنيفات قد تؤثر لنا على أهمية موضوعات بعينها، إلا أنها لا تقدم في موضوعنا إلا المادة الخام، التي وجب على الباحث القيام على تشكيلها -أو تقديم مقترح على الأقل إذا ما اتسعت الصفحات لذلك الأمر- في كيفية التأليف بين كثير من نصوصها لرؤية كلية تأسيسية للعالم.

وفي هذا المقام فإن علينا أن نقترح ضمن هذا الإطار المنهاجي ما يمكن أن يمثل حلاً لتلك المعضلة وفي إطارها انتشرت تسميته **بالنص المترابط Hypertext** ، والذي يكون من نصوص الأستاذ الإمام المتناثرة نصاً جديداً حول رؤية العالم ينظم ما بين لبناته وينسج ما بين خطوطه وخيوطه، ويؤكد عناصر تفاعلاته وشبكياته.

إنها رؤية تعبر عن تفكير منظومي لا تتغيا التعقيد ولكنها تؤكد على أن للفكر المنظومي أصوله ومفرداته وارتباطاته؛ بحيث يحدث ذلك النمط من التفكير حالة من "شبكة العين"؛ تلك

الشبكية التي تحقق -مع عناصر أخرى- بصراً أحياناً وبصيرة أعمق. ولا نكتفي بعرض النصوص منفصلة انفصلاً شبكياً. ونقدم في هذا السياق هذا الشكل الذي يتعلق بالنص المترابط ومقتضياته المنهجية حتى يمكننا الاستفادة من هذه الإمكانيات المنهجية التي يوفرها.

فإنه على الرغم من انتشار ذلك المصطلح ضمن الكتابات التي تتعلق بعلوم الحاسوب وشبكة المعلومات وعملية الاسترجاع، فإن الفلسفة الكامنة خلف "النص المترابط" لا تقف عند حدود ذلك الاستخدام الآلي ولكن الأمر أبعد من ذلك: ماذا يريد "النص المترابط" أن ينتج؛ سواءً أنتج ذلك عن طريق الحاسوب أو أنتج بالتفكير الذهني وشبكة العلاقات التي ترتبط بالمعارف والأفكار؟

ثانياً - أما عن تلك الإشكالات التي تتعلق بالإطار النظري وكما سبق القول فإن مفهوم رؤية العالم من المفاهيم التي رغم استحداثها إلا أنها تعبر عن نمط من التفكير يرتبط بجملة الأنساق الحضارية في تطورها وانعكاساتها المعرفية؛ ومن هنا فإن إشكالية رؤية العالم تثير أكثر من إشكال فرعي:

1- ما هي رؤية العالم؟ هل هي تقتصر على جملة من المفاهيم الكلية أم على واحد منها؟ أم أن عمق هذه الرؤية لا يتعلق بمفرداتها بمقدار ما يتعلق بالمقدرة على نظمها.

2- الإشكال الثاني محوره القضية التي تتعلق بمصادر رؤية العالم، ذلك أن التنازع بين الوضعية والدين قد شهد صراعاً لا يمكن أن نجنب رؤية العالم عنه، حتى إننا نستطيع أن نصنف مع من صنف رؤى العالم إلى: رؤية علمانية مادية وضعية، وإلى أخرى دينية قادرة على أن تصل الواقع بأنساق الحياة المختلفة من معارف وقيم وأنماط سلوك ومقاصد كلية.

3- كذلك فإن هناك إشكالاً ثالثاً، هذا الإشكال الثالث إنما يتعلق بالغاية الكلية التي ترتبط

بالاستفادة من تأصيل رؤى العالم.

غاية الأمر في هذا المقام أن رؤى العالم بتصنيفاتها وتكويناتها المختلفة إنما تعبر عن دراسات ما ورائيه في عالم الأفكار والمعارف، وتعبر عن الفلسفة الكامنة خلفها وفي جوفها. وفقاً لهذه الرؤية، فإن المعارف والأفكار ذات جذور ضاربة وذات سيقان باسقة وذات فروع مثمرة. المعرفة -أو بالأحرى رؤية العالم- كالشجرة التي يمكن أن تتعهد بالرعاية وبالنماء والتطوير، وقبل كل ذلك بالتأصيل: { أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ } .

ويمكن أن نرى نموذجاً لحال شبكية أو شجرية هذه الرؤية في الشكليات التالية، وكأننا نحاكي في هذا المقام ما فعله "الإمام الشعراني" في "الميزان". ألا نستطيع أن نستلهم رؤية العالم في معاني "الميزان" كرؤية كلية يوزن بها عالم الأشياء وعالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأحداث وعالم الرموز وعالم النظم؛ الأمر يستحق منا بعض "التفعيل" ولكنه يفضي بنا إلى إشكالات "تشغيل" ذلك النموذج.

ثالثاً - أما الإشكالات التي تتعلق بالتطبيق لهذه الرؤية فإنه لابد أن نشير إلى أن بحثاً من ذلك النوع يتطلب منا قراءة متقسية وقراءة متأنية لكتابات الشيخ الإمام، وأبعد من ذلك قراءة ما كتب عنه ومحاولة توظيف هذه الرؤى ضمن سياقات وأطر تتعلق ببيان رؤية الأستاذ الإمام لما نحن فيه من رؤى العالم.

وهنا يبدو لنا أن رؤى العالم -وفق مفرداتها وعناصرها- إنما تشكل مناطق تشير إلى عناصر ثبات كما تشير كذلك إلى تجليات تمثل عناصر تغير، وهي التي تشكل التأسيس للمشروع الإصلاحي وكذلك النهوضي. وحال ذلك الإشكال إنما يقتضينا أن نشير إلى كيف نرسم هذه الصورة لرؤية العالم لدى الأستاذ الإمام؟ وهل هذه الرؤية تشكل رؤية فردية تختص به؟ أم

أنها تأشير على رؤى تتعلق بالعقل الجمعي للأمة الذي قد استجمع فيه الأستاذ الإمام كل طاقته
ليعرض بصدده رؤيته الخاصة في مشروعه الإصلاحية؟

ومن هنا فإن الحديث عن طبيعة هذه الرؤية وتقويمها في سياق رؤية إسلامية كلية أو
مقارنتها برؤى إصلاحية أخرى، إنما يعبر عن عمل ليس في طاقة ذلك البحث أن يقوم به أو
عليه، على أهمية ذلك في استحداث قراءات أكثر دلالة وإن كانت أكثر تعقيداً. (القراءة الجامعة
والمقارنة).

المفاهيم الأساسية بين المدخل المنهجي في النص المترابط، وأصول رؤية العالم

(النص وعالم الأفكار):

هذا المفهوم اهتم به الغرب، بينما لم تهتم به الدراسات الإسلامية على مستوى المصطلح،
اللهم إلا على مستوى المفردات والعناصر التي تكون رؤية العالم. ومن هنا نقدم بعض الأفكار
الأولية حول ما يسمى بروية العالم ثم نقدم تطويراً لتلك الرؤية بما يتناسب وتلك الأفكار التي
قدمها محمد عبده، وتكون هذه الرؤية بذلك الاعتبار مدخلاً لتجميع أفكار محمد عبده الكلية
والفرعية في نسق واحد يمكننا من الربط بين النصوص وإحداث الترابط بين مفرداتها، ضمن تلك
الآليات المتعارف عليها فيما أسمى بالنص المترابط.

انظر للشكل التخطيطي الذي يؤصل لرؤية العالم عند الشيخ الإمام محمد عبده.

(1) - النص المترابط وعناصره الأساسية

أ - فكرة النص المترابط:

هو ترجمة لما يطلق عليه الهايبرتكست فكلمة Hyper تعني الربط؛ ومن ثم فهي تستخدم مع العديد من المجالات يطلق عليها "... المترابط" أو ".. المترابطة"؛ ومن ثم ففي هذا المجال نجد أنفسنا أمام "النص المترابط".

ب - المفاهيم والتعريفات:

يشير مصطلح الهايبرتكست إلى الربط الديناميكي بين الأفكار أو أجزاء وفيرة من المعلومات وثائق أخرى.

ومن ثم فالهايبرتكس تقنية عملية أو معلوماتية يمكن تحويلها إلى أداة منهجية تهدف إلى توفير الوسائل والآليات لربط أو تكامل الوثائق ذات العلاقة بموضوع معين، وبما يتيح للقارئ التجول في مجال متعدد الأبعاد.

وبعكس النظم التقليدية فالهايبرتكست يقدم أسلوبَ بحثٍ يحاكي فيه عمليات التفكير لدى الإنسان. والإنسان لا يفكر بقواعد التكشيف أو التصنيف، وإنما يفكر بوسائل الربط بين النصوص والأفكار وبين المعلومات والصور، وتعد هذه العملية التي تربط بين عالم أفكار نصوصٍ متعددة تجمع بينها الفكرة أو يجمع بينها المؤلف، من أهم التجليات الفكرية لإمكان تحقيق هذا الهدف من ابتكار نص مترابط.

فإن كان ذلك مع الألة أو الحاسوب أو شبكة المعلومات يعبر عن حالة ما يسمى "بالاسترجاع"، فإن هذه العملية الفكرية أو الذهنية يمكن أن نسميها عملية "استدعاء". وتتخذ عملية الاستدعاء أشكالاً متفاوتة ليس هذا مجال التفصيل فيها.

هذا الاستدعاء يساعد على البحث بين عُقد Nodes من المعلومات بواسطة مؤشرات Links، وهي غالبًا مثل مؤشرات إلاحالات: انظر أيضًا: .."، وكذلك مؤشرات تعدد رؤوس الموضوعات للوثيقة الواحدة.

كما أن هناك تعريفات للهايبرتكست بأنه يحاكي طريقة عمل الذاكرة لدى الإنسان مثل: "المصاحبات" عند الحاجة "القرائن"، هذا التعبير الذي يؤكد على المصاحبات يمكن رؤده وبلا تعسف إلى مفهوم "الاستصحاب، الأصولي"، وانتقاله إلى مجال الفكر بما يحدث صحة متناسقة وتتأغمًا بين النصوص المتناثرة، فيجعل من المدخل إليها (من واحدة المؤلف أو جامعة الفكرة) مدخلًا لا بأس به في هذا المقام.

ج- عناصر الهايبرتكست

- 1- قاعدة بيانات بالنص "العقد": وتشكل في بحثنا هذا جملة النصوص التي أنتجها الأستاذ الإمام في كتابات مختلفة سواء كتبها هو، أو كتبت له أو كتبت عنه.
- 2- شبكة الدلالة اللفظية (الروابط) التي تربط العناصر في النص، وهي في موضوعنا تعبر عن وضع ما أسميناه "الشبكة/ الشجرة المفاهيمية"، "السعة الدلالية"، "الحقل الدلالي"، "حمولة اللفظ والمعنى"، "ذاكرة المفاهيم"، "أدوارها فاعلياتها المختلفة".

- 3- أدوات الإيجاد وتصفح ودمج النص وشبكة الدلالة ويقصد بذلك حالة تفاعل المستفيد مع الحاسب، في هذا السياق يمكن تحويل هذه المسألة إلى عمليات سبر وفحص وقراءة وتصنيف للنصوص أو بعض أجزائها بحيث يسهل تسكينها ضمن منظومات دالة ودلالية.

فالشكل التسلسلي يتحول إلى هرمي ثم إلى شبكي؛ ومن ثم أصبح متاحًا تصفح الهرمية والشبكات على الشاشة..

* استراتيجيات الاستخدام:

- إيجاد الرابط.
- تسمية الرابط.
- اختيار المصدر واتجاه الروابط.
- وصف المرتكزات anchors.
- استخدام الرابط مع العقد والروابط الأخرى في وقت واحد؛ وهذا مما يحقق عملية إعادة تركيب النص باستحداث نص جديد يتبين من خلاله الفكرة، وتصدر عنه العبرة، ويستوعب معاني السياق والخبرة.

(2)- رؤية العالم عناصرها التأسيسية ومنظومتها المعرفية والمفاهيمية

ضمن سياق ما أكدناه من استثمار آليات "الاستدعاء" في إنتاج النص المترابط تحدثنا عن استدعاءٍ تقتضيه جامعية المؤلف؛ وهو في هذا البحث الأستاذ الإمام، إلا أن هناك شكلاً آخر للاستدعاء هو "جامعية الفكرة"؛ إذ تشكل الفكرة الأساس، وإن شئت التشبيه "المغناطيس" الذي يجتذب وينجذب إليه كل ما يتعلق بعمران هذه الفكرة وأعمدتها وأركانها ومفرداتها وأنساقها؛ بحيث تجمع على صعيد واحد في نص مبتكر جديد.

جامعية الفكرة في هذا المقام تتمثل فيما يمكن تسميته رؤية العالم، وهو من المفاهيم التي أشرنا إلى أهميتها الكبرى في تحليلٍ يجمع بين الأنساق المختلفة (نسق الوجود، نسق المعرفة، نسق القيم، نسق المفاهيم والرموز، نسق المنهج.....إلخ).

ومن هنا وجب علينا النظر إلى التفكير بذلك المفهوم وتحديد مفرداته وفروعه ، ونحاول -كعادتنا البحثية- أن نحول ذلك المفهوم ونطوعه بما يؤصل عناصر لياقته؛ سواء تعلق بالموضوع مباشرة عن رؤية الأستاذ الإمام، أو تعلق بإمكانات تسكينه في النسق المعرفي الإسلامي. وفي هذا السياق سنقدم جملة المفردات والمنظومات والأنساق الداخلة في هذا المفهوم، ثم نقدم بعد ذلك كيف أنه تجلّى أبعد ما يكون في مشروعه الإصلاحي.

إننا لا نتصور بأي حال من الأحوال أي مشروع إصلاحي من دون رؤية للعالم تلك الرؤية التي تمثل الكامن خلف الكامن في تلك الرؤية، وتحكم عناصر بنائها الحجبي والمعرفي كما أنها تحدث تأثيراتها الفكرية والثقافية والحضارية.

ومن هنا فإننا ننتقل إلى النقطة الثالثة التي نهتم بها في ذلك المفهوم، وهي فاعلية هذه الرؤية وفق تكوينها في بنية المشروع الإصلاحي للأستاذ الإمام، وهذا سيكون موضع تقصُّ وفحصٍ وبحثٍ.

ترتكز بحوث رؤية العالم على الفهم وليس على الرصد أو الوصف، فهي تغوص وراء الظواهر المختلفة بقصد الكشف عن أنماط التفكير والمبادئ التي وراء هذه الظواهر. وقد توسع استخدام مفهوم رؤية العالم فظهرت مصطلحات أخرى تتداخل معانيها مع ذلك المفهوم أو تستخدم بنفس المعنى مثل: "نظرة أو رؤية، صورة إلخ".

كما أن رؤى العالم وتصورات المكان والزمان ومقولات الفكر وأنساق التفكير قد تأصلت في المجتمع ذاته، وهناك من اهتم بالتصورات أو رؤى العالم الدينية ويذهب إلى أن كل

المعتقدات الدينية -سواء البسيطة أو المركبة- تتمثل خاصية واحدة عامة أو مشتركة؛ فهي تقتض تصنيفاً كل الأشياء التي يفكر فيها الإنسان.

عناصر رؤى العالم:

1- الذات: وهي محور رؤى العالم، ومن خلالها يمكن ملاحظة العالم/ الكون.

2- غير الذات وتشمل سائر البشر، وغير البشر (الطبيعة/ الإله).

3- الزمان.

4- المكان.

رؤية العالم هي الفهم العقلي للواقع بما يتضمنه من معرفة ومعتقدات عن الطبيعة والإنسان.

رؤى العالم والنسق الرمزي:

يقترب تصور رؤية العالم من مفهوم النسق الرمزي الذي يفسر به أفراد المجتمع أصل الكون ونشأته وتركيبه وعلاقتهم به، وعلاقته بأنساق التفكير وفهم الظواهر والأحداث خصوصاً التي تتعلق بالكون غير المتطور.

الخصائص النظرية لمفهوم رؤى العالم:

- الصورة المكانية: صورة الفرد عن موضعه في المكان المحيط به.
- الصورة الزمانية: صورة الفرد عن مجرى الزمن وموضعه فيه.
- الصورة العلاقية: صورة الفرد التي يكونها عن الكون.
- الصورة الشخصية: مكان الفرد في عالم الأشخاص والأدوار والنظم التي تحيط به.
- صورة القيمة وهي المتعلقة بالأحكام وما هو خير وما هو شر عن رؤية العالم ككل.

- الصورة الوجدانية: وهي صيغ الأجزاء المتنوعة من رؤية العالم بصيغة عاطفية/ انفعالية.

- الصورة الشعورية/ ودون الشعورية.

- صورة ذلك منظورًا إليها من بعد التأكيد أو اليقين أو عدم التأكد أو عدم الوضوح، أو بغموض.

- الصورة من خلال الواقعية/ عدم الواقعية.

- الصورة من خلال الخصوصية/ العمومية.

إن المفاهيم ورؤى العالم كما يقول رابابورت توجه أفعال الناس حيث يسلكون في ضوئها، فهي تعد الناس باستجابات تكيفية نحو البيئة أو العالم.

المستويات التي تؤلف رؤى العالم لدى تلك الجماعة:

أولاً- المسلمات المقدسة المطلقة.

ثانيًا- الافتراضات الكونية سواء تعلق بالبناء الكوني وكذلك بالعالم المادي.

ثالثًا- القواعد الأخلاقية التي ترشد وتحكم السلوك.

رابعًا- الشروط المادية والاجتماعية المتضمنة في الشعار.

خامسًا- المعرفية اليومية.

وطبقًا لآراء ويلفاس تتكون رؤى العالم من العناصر أو المكونات التالية:

أ- صورة العالم World picture: وهي تؤسس على التفكير وتكون معرفية في جوهرها.

ب- نماذج الحياة Ideals of life وهي تؤسس على الإرادة أو النشاط.

ج- خبرة الحياة Experience of life وهي تؤسس على الشعور أو الإحساس والقيم.

وهي فكرة عن الكون ومنظومة الأفكار التي تجيب عن تساؤلات كبرى حول الموقف عن الوجود والأشياء التي تحيط به وعلاقته بهذه الأشياء.

أهم ما يمكن أن تحيط به دراسات رؤية العالم هي.

1- أنماط التفكير والقواعد والمبادئ الذهنية التي يصدر عنها (الشخص) في نظره الثقافية والتي تكمن وراء الثقافة وتعطيها معناها.

2- الاهتمام بالمبادئ المجردة التي تحكم السلوك وأنساق القيم التي توجه الشخص في علاقاته واختياراته.

3- نظرة الشخص إلى ذاته وإلى الناس أو الآخرين وتقييمه لهم ولتصرفاتهم ولعلاقته بهم، وكذلك نظره للبيئة المادية والماورائية.

4- الطريقة التي تبدو بها الأشياء والعلاقات والتصرفات في نظر الشخص والحكم عليها.

5- الاهتمام بالبعدين الزماني والمكاني، والبعد التاريخي واحتكاك الثقافات وتأثير ذلك على حياة المجتمع وقيمه.

6- النظرة المستقبلية لدى الشخص على اعتبار أن المستقبل هو امتداد للحاضر أي إنه (واقع) لم يتحقق بعد بالفعل، واعتبار رؤية العالم ذات طبيعة معيارية وتقويمية.

ويقول اشتيفستر: "علاقتنا بالعالم كما هي قائمة في يقين إرادتنا للحياة حينما تحاول هذه الإرادة أن تدمج نفسها في الفكر -تلك هي نظرتنا للكون. إن النظرة في الكون ثمرة النظرة في الحياة والعكس" (احترام الحياة -المعرفة الأخلاقية- النظر العقلي المتحرر- النظر الروحي للحضارة- العلاقات الفعالة بين الإنسان- الخير المشترك). إن الأهمية الكبرى لرؤى العالم تنبع من أن كل شخص وربما كل جماعة تعمل على ضوء رؤيتها للكون؛ أي إن الصورة المنعكسة في أذهاننا

عن الوجود، لها تأثير مباشر في عملنا، في عقيدتنا، وسلوكنا (الاجتماعي)، في حياتنا الفردية والاجتماعية؛ أي أن كل شخص يعيش وفق رؤيته للكون.

إن دراسة الرؤى الكونية هي الحقيقة دراسة الأفراد، وإن دراسة رؤية كل مدرسة وكل جماعة (شعب) للكون، هي دراسة لكيفية بناء وحركة تلك الجماعة وذلك الشعب وصفات كل منهما.

ثانيًا - معمار رؤية العالم لدى الأستاذ الإمام

كما تأكد لدينا فإننا في حاجة أن نطور من العناصر المكونة لمعمار رؤية العالم وهندستها، نفتتحها بالتأسيس التوحيدي، الذي يشكل "صبغة الله" ومن أحسن من الله صبغة، تلك الصبغة التي تجمع بين عناصر الرؤية الكلية فلا ترى إلا بها ومن خلالها فترى الثلاثية الكلية (للإنسان والكون والحياة) وترى الثلاثية الواصلة (الاستخلاف والتزكية والعمران)، وتؤسس عناصر الكليات السبع التي تخرج جميعاً من مشكاة واحدة موحدة "مشكاة التوحيد" التوحيد بين هذه الكليات السبع من المحكمات التي تتفاعل مع بعضها البعض، وهي جوهر البيانات المبنوثة في الكتاب التي يشكل الميزان، البيانات كليات واضحة تحدد عناصر البيان والبنية، أصول المنهج النازمة لتلك الكليات الواضحة، وكتاب بهدي للتي هي أقوم في إطار من الإحسان الحضاري كنسق مفتوح للإنسان وحركته وفاعليته، والميزان هو المعيار الذي تقوم به العوالم المختلفة والأنساق المختلفة.

العقيدة أولى تلك الكليات والبيانات التي يحويها الكتاب وتوصل قواعد الفعل والميزان إنها تتوجه إلى تلك العلاقة الجوهرية بين عالم الخالق وعالم المخلوقين، وبما تتيحه عناصر الرسالة، العقيدة تشير في البدء إلى حقيقة الألوهية، وتشير إلى العناصر الأخرى التي تتفرع عن تلك الرؤية، فتقدم عناصر الرؤية، ومنظومة تؤصل توجهها وموقفاً حول الإنسان (كفاعل حضاري) والكون (كساحة حضارية) والحياة (التي تشكل كل عناصر الفاعليات والتفاعل الحضاري بين الإنسان والكون...)

ثم تأتي **الشرعة** لتترجم خصائصها التكوينية وسماتها الكلية إلى قيم أساسية تتحرك وتسرى في كيان الشرعة وجزئياتها فتجمع ما بينها وتصل بين عناصرها. وتعتبر **القيم الحاكمة** ضمن منظومة كلية، تحرك قيمًا ناظمة، وتولد قيمًا تخص مجال بحثي يتعلق بكيان من الظواهر تتعلق به.

وتأتي **الأمة** لتشكل قيمة في ذاتها تعبر عنه من نسق، الأمة هي أمة القيم، حاملة لرسالة حضارية ضمن وظيفتها الحضارية والمعنوية، الأمة الجامعة قيمة تشكل عناصر الفاعلية والخيرية والوسطية والشهود.

ثم **الحضارة** كبناء عمراني يحقق أقصى كمالات العمارة الإنسانية وتجعل من العمران قيمة حاكمة، تضيف على الرؤية والفعل والنظم قيمة، بما تؤدي إليه أو تؤثر في العمران، العمران هو في النهاية منظومة ما ينفع الناس الماكث في الأرض.

وتأتي **السنن** كأهم قيم التحريك والسعي فتضيف على جوهرية الفقه والفعل قيمة، من خلال منهج النظر السنني، السنن هي التي تعطي وتضيف عناصر القيمة في الرؤية الكونية، وتضيف القيمة على التاريخ وأحداثه ومساراته وأيام الله، والاعتبار بأحداثه هي قيمة تحرك الوعي بالسنن وفعلها. كما تضيف القيم على الاجتماع الإنساني وسنن عمارته وسنن فساد وسنن انحرافه وسنن ترقيته، كما تضيف القيمة على النفس فهمًا وفاعلية، فهي تجعل من عمران النفس والاجتماع والتاريخ والكون

مدخلاً مهماً ل عمران المستقبل وإضفاء القيمة على التفكير في المآلات وتدبر حركة المستقبل وفاعلياته.

وأخيراً تأتي المنظومة المقاصدية كأهم القيم المقصدية في الرؤية والفعل، الوعي والسعي، لا تأتي القيم المرتبطة بها إلا بارتباطها بمقصد كلي "الأمر بمقاصدها".

المقاصد مجالات تحرك قيمة الرؤية والأفعال، والمراتب مجالات تحرك وزن الرؤى والأفعال وهي في كل الأحوال تحرك التفكير بالقيم هذا ما سنتعرف عليه تفصيلاً في تناول تلك المفردات واحدة بعد الأخرى.

(1) التوحيد: رؤية كلية للعالم وقيمة لا تقبل التصاعد

التوحيد -وفق هذه الرؤية عند الشيخ الإمام- هو المبتدى والمنتهى، وهو قيمة كلية ومعرفية لا تقبل التصاعد، فهو يحوط كل عناصر الرؤية للعالم، تسري فيها الحياة. "أصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له. وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه، وهو إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلق الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد، وهذا المطلب كان الغاية من بعثة النبي (ع) كما تشهد آيات الكتاب العزيز... فعلم التوحيد -على تعبير الأستاذ الإمام في مقدمته- هو "ركن العلم الشديد".

وفي إطار استعراضه لذلك العلم يعرض الإمام مجملًا من تاريخ هذا العلم وما آل إليه من جراء ما أسماه "بالفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم، فجاء قوم ظنوا في أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم، فوضعوا ما لم يعد للإسلام قبلاً باحتماله، غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصارًا، ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانًا، فشردوا بالعقول عن مواطنها، وتحكموا في التضليل والتفكير، وغلوا في ذلك حتى قلدوا من سبق من الأمم في دعوى العدواة بين العلم والدين، وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب: هذا حلال وهذا حرم، وهذا كفر وهذا إسلام.

والدين من وراء ما يتوهمون، والله جل شأنه فوق ما يظنون وما يصفون. ولكن ماذا أصاب العامة في عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم بعد طول الخبط وكثرة الخلط؟ .. شر عظيم، وخطب عميم....."

وبذلك فقد خرجوا عن حقيقة التوحيد في جامعية الأمة وتماسكها اللذين يشكل التوحيد المناط الواصل بينهما، فهذا ما حكاه الأستاذ الإمام: "... ينبئك عن كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين، وكيف عبثت به في نهاية الأمر أيدي المفرقين، حتى خرجوا به عن قصده، وبعدوا به عن حده...".

فمن أصل العلم يحدث الوصل بينه وبين غايته وصلاً يوثق العرى "عروة وثقى لا انفصام لها"، والذي علينا اعتقاده أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد، العقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه، وما وراء ذلك فنزعات شياطين، وشهوات سلاطين، والقرآن شاهد على كل بعمله، قاض عليه في صوابه وخطئه...". وإذا كان هذا هو الأصل، فما الغاية من هذا العلم إلا "... القيام بفرض مجمع عليه وهو معرفة الله (تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به، والتصديق برسله على وجه اليقين الذي تطمئن به النفس اعتماداً على الدليل لا استرسالاً مع التقليد، حسبما أرشدنا إليه الكتاب، فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون، وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه، تحصيلاً لليقين بما هدانا إليه، ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم في الأخذ بما عليه آباؤهم، وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك، واستتباعه لهدم معتقداتهم وإمحاء وجودهم الملي، وحق ما قال، فإن التقليد كما يكون في الحق يأتي في الباطل، وكما يكون في النافع يحصل في الضار، فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الإنسان...".

ومن هنا كان من الخطورة الثبات قلوب الجمهور من الخاصة "بمرض التقليد" فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه، ولا يريدونه إلا موافقًا لما يعتقدون، فإن جاءهم أحد بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا في مقاومته، وإن أدى ذلك إلى جحد العقل برمته. فأكثرهم يعتقد فيستدل، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد، فإن صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم: "ويل للخابط، ذلك قلب لسنة الله في خلقه، وتحريف لهديه في شرعه"، عرتهم هزة من الجزع، ثم عادوا إلى السكون محتجين، بأن هذا هو المألوف وما أقمنا إلا على معروف، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..".

ومن مقتضيات التوحيد أنه يشكل منظومة توحيدية تفيض بالعقل والمصلحة، والحكمة والقيمة، والعلم والمعرفة، وحركة حضارية في الحياة ترتبط بنظام العمران البشري، وعزة الأمم وذلتها؛ إنه التوحيد الموحد بين أصول العقيدة الدافعة والشرعة الرافعة والقيم التأسيسية الحاكمة، والأمة الجامعة، والحضارة الشاهدة الفاعلة، والسنن الشرطية القاضية، والمقاصد الحافظة.. جملة يجمع فيها الإمام هذه الرؤية حينما يعقب على حكمة الله في أفعال من مقتضيات توحيده، ومعرفة العقل البشري لما يحسن ويقبح، وتأثير ذلك على علاقة الإنسان وفعله واختياره بتوحيد الله ووحدانيته:

"..اتفق الجميع على أن أفعاله (سبحانه) لا تخلو من حكمة. وصرح الغلاة والمقصرون جميعًا بأنه (تعالى) منزّه عن العبث في أفعاله .. وحكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظامًا أو يدفع فسادًا؛ خاصًا كان أو عامًا، لو كشف للعقل من أي وجه لعقله وحكم بأن العمل لم يكن عبثًا ولعبًا، ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع إلى هذا حاكمناه إلى أوضاع اللغة وبداهة العقل -لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ولا يتمثل عند العقل بمثالها إلا إذا كان ما يتبع العمل مرادًا لفاعله بالفعل.. ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر إلا لأمر يترتب عليها

يكون غاية لها، وإنه كان هذا في العاقل الحادث، فما ظنك بموجد كل عقل، ومنتهى الكمال في العلم والحكم؟، هذه كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد، صنع الله الذي أتقن كل شيء وأحسن خلقه، مشحون بضروب الحكم فهو (سبحانه) يريد الفعل ويريد ما يترتب عليه من الحكمة، وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة .. فوجوب الحكمة في أفعاله تابع لوجوب الكمال في علمه وإرادته وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين؛ ومن حكمة الخالق يأتي قبس الحكمة في عالم المخلوقين متمثلة في فرق العقل بين النافع والضار والخير والشر ".... كل هذا عرفه العقل البشري وفرق فيه بين الضار والنافع، وسمى الأول فعل الشر، والثاني عمل الخير، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة (القيم والأخلاق)، وقد حددها النظر الفكري (المعرفة والحكمة) على تفاوت في الإجمال والتفصيل للتفاوت في درجات عقول الناظرين، وناط بهما سعادة الإنسان وشقاءه في هذه الحياة (الكون والإنسان والحياة)، كما ربط بهما نظام العمران البشري وفساده (الحضارة) وعزة الأمم وذلتها (الشهود الحضاري للأمة)، وضعفها وقوتها..".

هذا التوحيد لله "... في ذاته وأفعاله وتتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، فأقام الأدلة على أن للكون خالقًا واحدًا متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها، وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه، وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم وأنهم له وإليه راجعون..."، فما كان لذلك من أثر في الاعتقاد إلا "... طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التي لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة؛ ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التي كانت تلازم الأوهام، وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف في المعبودين وعليهم..".

فماذا كان من أثر للتوحيد على عالم الإنسانية والمخلوقين؟ .. وارتفع شأن الإنسان وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة، بحيث أصبح لا يخضع لأحد إلا لخالق السماوات والأرض وقاهر الناس أجمعين... تجلت بذلك للإنسان نفسه حركة كريمة، وأطلقت إرادته من

القيود التي كانت تعقدها بإرادة غيره سواء كانت إرادة بشرية، ظن أنها مشعبة من الإرادة الإلهية -أو أنها هي- كإرادة الرؤساء والمسيطرين، أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن في القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها. وافتكت عزيمة من أسر الوسطاء والشفعاء والمتكهنات والعرفاء، وزعماء السيطرة على الأسرار، ومنتحلي حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله، الزاعمين أنهم واسطة النجاة، وبأيديهم الشقاء والإسعاد. وبالجملية فقد اعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين.

صار الإنسان بالتوحيد عبدًا لله خاصةً، حرًا من العبودية لكل ما سواه، فكان له من الحق ما للحر على الحر، لا على في الحق ولا وضع، ولا سافل ولا رفيع. ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم، ولا تفاضل إلا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم، ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم، وخلوص العمل من العوج والرياء، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين، وتمخص الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة، وكفت عنها أيدي العالة وأهل البطالة، ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته، لا بعمله وخدمته.

طالب الإنسان بالعمل؛ كل قادر عليه، وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ {7/99} وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } سورة الزلزلة: الآيات 7-8، { وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى } سورة النجم: الآية 39، وأباح لكل أحد أن يتناول من الطبيات ما شاء أكلاً وشرّباً ولباساً وزينة، ولم يحظر عليه إلا ما كان ضاراً بنفسه أو بمن يدخل في ولايته، أو ما تعدى ضرره إلى غيره، وحدد في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة. فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله واتسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها، اللهم إلا حقاً محترماً تصطدم به.

أنهى الإسلام على التقليد، وحمل عليه حملة لم يرددها عنه القدر فبددت فيآلقه المتغلبة على النفوس، واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الأمم.

صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته، وهبت به نومة طال عليه الغيب فيها. كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق، خلصت إليه هيمنة من سدنة هياكل الوهم: "تم، فإن الليل حالك والطريق وعرة، والغاية بعيدة، والراحلة كليلة، والأزواد قليلة".

علا صوت الإسلام على وساوس الطغام، وجهر بأن الإنسان لم يخلق لقياد الزمام (كالأنعام)، ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والأعلام -أعلام الكون ودلائل الحوادث- وإنما المعلمون منبهون ومرشدون وإلى طريق البحث هادون.

صرح في وصف أهل الحق بأنهم { الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ } سورة الزمر: الآية 18، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال، من غير فرق بين القائلين، ليأخذوا بما عرفوا حسنه، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمررون وينهون، ووضعهم تحت أنظار مرؤسيهم يخبرونهم كما يشاءون، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون بما يعلمون، ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون.

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء، وما توارثه عنهم الأبناء، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا مسميًا لعقول على عقول ولأذهان على أذهان، وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان، بل للاحق في علم الأحوال الماضية، واستعداده للنظر فيها بما وصل إليه من آثارها في الكون، ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه. وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر، ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقتهم وطغيان الشر الذي وصل

إليهم بما اقترفه سلفهم { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } سورة الأنعام: الآية 11، وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب، ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب.

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده، وخلصه من كل تقليد كان استعبده، ورده إلى مملكته، يقضي فيها بحكمه وحكمته، مع الخضوع في ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته. ولا حد للعمل في منطقة حدودها ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها.

بهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان، طالما حرم منهما، وهما: استقلال الإرادة، واستقلال الرأي والفكر، وبهما كملت له إنسانيته، واستعد لأن يبلغ السعادة ما هياه الله له بحكم الفطرة التي فطر عليها..

وأما الذين قال إنهم لم يحملوا التوراة وهي بين أيديهم بعدما حملوها، فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الألفاظ، ولم تسهم عقولهم إلى درك ما أودعته من الشرائع والأحكام، فعميت عليهم بذلك طرف الاهتداء بها، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التي نصبت بإزائها، فحق عليهم ذلك المثل الذي أظهر شأنهم بما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به: مثل الحمار الذي يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب، وقصم الظهر وانبهار النفس، وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال، فما كان سبباً في إسعادهم، وهو التنزيل والشرعة، أصبح سبباً في شقائهم بالجهل والغباوة.

نص الكتاب على أن دين الله في جميع الأزمان هو إفراده بالربوبية، والاستسلام له وحده بالعبودية، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر، وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة.

وقد ضمنه كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسله، ودعا العقول إلى فهمه منه، والعزائم إلى العمل به، وأن هذا المعنى من الدين، هو الأصل الذي يُرجع إليه عند هبوب التخالف، وهو الميزان الذي توزن به الأقوال عند التناصف: وأن اللجاج والمرء في الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الإلهية في الإنعام على البشرية ذهب الخلاف، وتراجعت القلوب إلى هداها، وسار الكافة في مرشدهم إخوانًا بالحق مستمسكين، وعلى نصرته متعاونين.

ومن سياق ما أداه الأستاذ الإمام أنه استئناف لبيان وحدة الدين المجملة فيما قبله، فصل فيه ما اتحد فيه الدين من أصول ومقاصد، ثم ما اختلف فيه من شرائع ومناهج المنصوص في قوله (تعالى): { لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } سورة المائدة: الآية 48، مع الإمام بحكمة ذلك، وهو من الحقائق التي لم يسبق إليها سابق كما أشار لذلك الأستاذ رشيد رضا.

وأما صور العبادات وضروب الاحتقالات مما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها، واختلاف الأحكام متقدمها مع متأخرها، فمصدره رحمة الله ورأفته في إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان. وكما جرت سنته -وهو رب العالمين- بالتدرج في تربية الأشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئًا، إلى راشد عقله كامل في نشأته، يمزق الحجب بفكره، ويواصل أسرار الكون بنظره.. كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه في تربية الأمم، فلم يكن من شأن الإنسان في جملة ونوعه أن يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله إلى يوم يبلغ الكمال منتهاه... وهذا من البديهيات التي لا يصلح الاختلاف فيها... وإن اختلف أهل النظر في بيان ما تفرع منه في علوم وضعت للبحث في الاجتماع البشري خاصة.

فماذا عما آلت إليه الشرائع وما بلغته العقائد، وما صادفته القيم، واختلفت فيه الأمم، وما أركست فيه الحضارات، وما توارت فيها من الوعي بالسنن وما ضيعت من جملة المقاصد والمنن.

هكذا نظر إلى مآلات الأديان وتطورها.. فقد.. "جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة، بل والخاصة، في طور أشبه بطور الطفولية للناشي.. ثم مضت على ذلك أزومات علت فيها الأقوام وسقطت، وارتفعت وانحطت، وجريت وكسبت، وتخالفت واتفقت وذاقت من الأيام آلامًا، وتقلبت في السعادة والشقاء أيامًا وأيامًا... وسنن للناس سننًا في عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه، وما دعاهم إليه. فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها ودأوى من أمراضها، ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله، وضاعت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله، ووقر في الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال، فهب القائلون عليه أنفسهم لمناقشة الملوك في السلطان، ومزاحمة أهل الترف في جمع الأموال، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل".

هذا كان شأنهم في السجاي والأعمال: نسوا طهارته، وباعوا نزهته، أما في العقائد فتفرقوا شيعا وأحدثوا بدعا، ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من أشد أركانها، وتوهموه من أقوى دعائمها، وهو حرمان العقول من النظر فيه، بل وفي غيره من دقائق الأكوان، والخطر على الأفكار أن تنفذ إلى شيء من سرائر الخلقة، فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل وأن الدين من أشد أعداء العلم.. وأفضى الغلو في ذلك بالأنفس إلى نزعة من أشأم النزعات على العالم الإنساني وهي نزعة الحرب بين أهل الدين، للالزام ببعض قضايا الدين.. فتقوض الأصل

وتخرمت العلائق بين الأهل وحلت القطيعة محل التراحم، والتخاصم مكان التعاون، والحرب محل السلام.. وكان الناس على ذلك إلى جاء الإسلام.

كانت سنن الاجتماع البشري قد بلغت بالإنسان أشده وأعدته الحوادث الماضية إلى رشد، فجاء الإسلام يخاطب العقل، ويستصرخ الفهم واللب، ويشركه مع العواطف والإحساس في إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأخروية، ويبين للناس ما اختلفوا فيه، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه، وبرهن على أن دين الله في جميع الأجيال واحد، ومشيئته في إصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة.. وجعل روح العبادة الإخلاص، وأن ما فرض من الأعمال إنما هو لما أوجب من التحلي بمكارم الأخلاق.. وعامل الإنسان في مواعظه معاملة الناصح الهادي للرجل الرشيد، فدعاه إلى استكمال جميع قواه الظاهرة والباطنة، وصرح بما لا يقبل التأويل أن في ذلك رضا الله وشكر نعمته، وأن الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول إلى خير العقبى إلا بالسعي في صلاح الدنيا.

رفع الإسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية، وقرر لكل فطرة شرف النسبة إلى الله في الخلق وشرف اندراجها في النوع الإنساني في الجنس والفصل والخاصة، وشرف استعداد هنا بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها.. هذه عبادات الإسلام على ما في الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الأشباه وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة.

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير "العالم"، والكون الغير "الإنسان"، فقرر أن آيات الله الكبرى في صنع العالم إنما يجري أمرها على السنن الإلهية.. وفيها التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد، لا يقضي فيه إلا العناية الأزلية على السنن التي أقامته عليها.

ثم أَمَاطَ اللثامَ عن حال الإنسان في النعم التي يتمتع بها الأشخاص أو الأمم، والمصائب التي يرزءون بها، ففصل بين الأمرين فصلاً لا مجال معه للخلط بينهما. فأما النعم التي يتمتع الله بها بعض الأشخاص في الحياة، والرازا التي يرزأ بها في نفسه.. ربما يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج، أو طاعة وعصيان، وكثير ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة.. حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم.. وكثيراً ما امنح الله الصالحين من عباده... وأما شأن الأمم فليس على ذلك فإن الروح الذي أو دعه الله جميع شرائعه الإلهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر، وتأديب الأهواء وتحديد مطامح الشهوات، والدخول إلى كل أمر من بابه، وطلب كل رغبة من أسبابها، وحفظ الأمانة واستشعار الأخوة والتعاون على البر، والتناصح في الخير والشر، وغير ذلك من أصول الفضائل.. ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة... ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها، يزيد الله النعم بقوته، وينقصها بضعفه، حتى إذا فارقتها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة إلى مقره، واستبدل الله عزة القوم بالذل، وكثرهم بالقل، ونعيمهم بالشقاء وراحتهم بالعناء، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين، فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون.

{ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا { سورة الإسراء: الآية 16، .. أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل، ثم لا ينفعهم الأنين ولا يجديهم البكاء ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال ولا يستجاب فهم الدعاء.. { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ { سورة الرعد: الآية 11، { سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا { سورة الأحزاب: الآية 62، على هذه السنن جرى سلف الأمة .. وحث القرآن على التعليم وإرشاد العامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

لم يدع الإسلام.. أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليه، ولا أمّا من أمهات الصالحات إلا أحيائها ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر واستقلال العقل في النظر، وما به من صلاح السجايا واستقامة الطبع، وما فيه من إنهاض العزائم إلى العمل وسوقها في سبل السعي... هل بعد الرشد وصاية؟ وبعد اكتمال العقل ولاية؟ كلا قد تبين الرشد من الغي ولم يبق إلا اتباع الهدى، والانتفاع بما ساقته أيدي الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين، لهذا ختمت النبوات بنبوّة محمد (ع) وانتهت الرسالات برسالته....

(2) الإنسان والكون والحياة وعناصر الساحة الحضارية

لا يقدم الإمام محمد عبده رؤيته للعالم بلغة فلسفية مجردة بل هو دائماً يربط بين تلك الرؤية ومشروعه الإصلاحي، ومن ثم يتحرك صوب الساحة الحضارية للفعل الإصلاحي ضمن محاولاته التجديدية للفكر الديني الإسلامي؛ وذلك بغرض كسر التقليد في أسلوب التفكير، وتوسيع المجال للخلف لإعمال العقل الذي سيأتي بعد في فهم القرآن والفكر الإسلامي للنهوض به في معترك الصراع الحضاري الثقافي والفلسفي القائم بين المسلمين وأعدائهم. ومن هنا كان لابد له أن يتصدى لأهم معضلة فلسفية عانى ويعاني منها الفكر الإنساني منذ بداية وعيه وحتى اليوم؛ وهذه المعضلة.. هي قصة الخليفة ووجودها على الأرض والتي تبدأ بآدم.

إنها عناصر الساحة الحضارية التي تتشكل في: الإنسان الفاعل، والمعمار الكوني، وفعل وتفاعل في ميدان الحياة.. صاغ كل ذلك شعور الأستاذ الإمام وغيره بالتحدي.. إذ لمح في المجتمعات الإسلامية تخلفاً لا يعود إلى طبيعة تلك المجتمعات، ولا إلى الوحي الهادي للبشرية، وطرح على نفسه ذات التساؤل الذي يشير إلى أسباب التخلف، وحدد -مثلاً حدد آخرون- أن ذلك يعود لسببين: أحدهما خارجي، والآخر داخلي على تفاوت فيما بينهما، الخارجي يتعلق

بطغيان الثقافة الغربية، والداخلي يعود إلى تخلف بعض الذين نصبوا أنفسهم قادة وأوصياء على فكرة "الإسلام"، وحالوا دون تداوله والاجتهاد فيه والتجدد له.

.. فواجه عبده مشكلة "تحدي الحضارة الغربية للإسلام والمسلمين" بتجديد الفكر الديني في فترة من أشد فترات ضعفه؛ بمنهج يقوم على إحياء الدين وتنقيته مما لحق به من تفسيرات جامدة، والعودة إلى جوهر العقيدة كما كان الحال في عهد السلف الصالح، والاستناد إلى العقل في فهم مصادرها. فشكل ذلك قسما في مشروعه الإصلاحى استندت إلى عناصر رؤية كلية للعالم.

الرؤية للإنسان: الفاعلية والمسئولية

ضمن هذه الرؤية الكلية يأتي الإنسان بفاعليته وفعله كأحد أهم عناصر الفعل الحضارى، "إن المبدع الأول -جل شأنه- أو دع في الإنسان قوتين: عملية ونظرية، ليتوصل بهما إلى كماله المخصوص به، وربط إحداها بالأخرى، فجعل كمال الأولى متوقفاً على كمال الثانية، فصار الإنسان مفطوراً على طلب النظريات، والوقوف على الحقائق، قبل أن يباشر عملاً ما، فإن العمل لا يُقصد إلا إذا كان له من النتائج ما يبعث على مباشرته، وليس كل عمل ينتج الفائدة المعتد بها، بل لابد أن يكون على نهج مخصوص، ولا جَرَم أن تصور النتيجة، ومعرفة أساليب العمل، مما يناط بقوة النظر، فإذا كملت، جاء العمل على أحسن الوجوه، وكانت الفائدة أعظم، والغاية أكمل.

ومن هذا صار كل إنسان حريصاً على استكمال النظريات، أولاً وبالذات، ليهتدي بها إلى مناهج أعماله، يقارفها للحصول على كمال حياته، ويميز النتائج على اختلاف درجاتها في النفع، ليضع بإزاء كل واحدة منها عملاً مخصوصاً، مرتباً على وجه معلوم، أقرب فائدة، وأسهل تتاولاً، وأحكم وضعاً..".

الإنسان بهذا الاعتبار يرتبط بأصول معرفية تتعلق بعلوم الإنسان: "فعلوم الإنسان هي عبارة عن الحدود التي بها الفوائد النافعة، يضبط بها طرق الأعمال الموصلة إلى تلك الفوائد، حتى لا يخبط في سيره، ولا يختلط عليه النافع الضار، فيقع في الشقاء، وتنتابه أيدي البلاء". والإنسان -وفق هذه الرؤية- يستمد معاني فاعلية من اختياره، ويتولد عن اختياره مسئولية، ويترتب على هذا وذاك مساءلته: "... فكما يشهد تسليم العقل السليم والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج في ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده، كذلك أنه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ويقدرها بإرادته، ثم يصدرها بقدره ما فيه، ويعد إنكار شيء من ذلك مساوياً لإنكار وجوده في مجافاته لبدهة العقل...

.. فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات. ويشهد بالبدهة أنه في أعماله الاختيارية -عقلية كانت أو جسمانية- قائم بتصريف ما وهبه الله من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله، وقد عرف القوم شكر الله على نعمه، فقالوا: هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله.. على هذا قامت الشرائع وبه استقامت التكاليف. ومن أنكر شيئاً منه فقد أنكر مكان الإيمان من نفسه، وهو عقله الذي شرفه الله بالخطاب في أوامره ونواهيه..."

"إن للوجود الإنساني في هذه الحياة الدنيا ثلاثة أدوار متوالية، يأخذ بعضها بأطراف بعض، الأول - دور الفطرة، وهو الوجود الطبيعي. والثاني - دور الاجتماع، وهو الحالة المدنية. والثالث - دور السياسة.

فالمرء يوجد ساذجاً فطرياً يلتمس الغذاء والمبيت وسائر الحاجات الطبيعية مما تصل يد إمكانه إليه، ثم يدفعه الحرص على الذات إلى حفظ النوع، وتلجئه كثرة الحاجات إلى طلب

الإعانة، فيتآلف ويجتمع فيصير مدنيًا، ثم يتقدم في هذه المرتبة فينظر في شئون نفسه ويهتم بأحوال جنسه، فيصير سياسيًا، وهو الإنسان المدني الكامل الحقوق والواجبات..".

... حيث جُبلت نفوس بني الإنسان على الميل إلى مَنْ أحسنَ إليها ومحبة من أبلغها إلى أمر تكمل به وجودها وتحسن بها أحوالها، سنة الله في عباده من قبل ومن بعد، ولن تجد لسنة الله تبديلًا. وأي سبيل لتكميل الوجود الإنساني وتحسين أحواله سوى تثقيف العقول وتربية الأفهام وحفظ الأبدان من عاديّات الأمراض ووقايتها من مخالب الفاقة وأشراك الاحتياج، وربط الجنس برياط المحبة والوداد.

...إذ لا ينال الإنسان ..الشرف الإنساني والسعادة الحقيقية والثروة الدائمة والنعيم الثابت إلا إذا صلح حال وطنه فتقدمت أبنائه وتحلت نفوسهم بالمعارف وصفات الكمال، فأخذ كل واحد حقه، وأدى الواجب عليه، وخدم العموم بجد ونشاط وسعى في مصالح الجميع بصدق وأمانة.. إن بدت منفعة لأي منهم تضافر الكل على جلبها، وإن أُلِمت به ملمة اتحدت قوى الجميع على إبعادها، فحينئذ يعم النفع جميع المتوطنين، وتستتب الأمانة، وتتسع دائرة المنافع المستديمة، فلا يخشى كاسب أن تفوته ثمرة كسبه، ولا يخاف مجتهد ضياع غاية اجتهاده، فكل من ينتسب إلى الإنسان.. إن كانوا ذوي العقل وأولي الفضل ينالون حظوظهم في مثل هذا الوطن المعزز بأهله، بخلاف ما إذا فسد حال الوطن واختلت شئون ذويه، فإن كل واحد منهم يقف عقبة في طريق أخيه، يسد أبواب الخير عليه ولا يتأخر عن إيقاع المكروه به متى تخيل في ذلك منفعة خصوصية تعود عليه، بل ربما خان الوطن عمومهم وباع قومه بمصلحته الذاتية، كما شوهذ ذلك في بعض الديار المصابة بداء الاحتلال".

لما كان من لوازم حفظ النوع الإنساني، المعرض للفناء والزوال، التناسل والتوالد، أودع الحق (سبحانه) في طبيعة الإنسان قوة شهوية تدعوه إلى الاقتران، وتحمله على طلب الازدواج،

كسائر أنواع الحيوانات. غير أن الإنسان يمتاز عن الحيوانات بقوة مُذكّرة يستحضر بها ما شهده في الماضي فيطلبه استحصلاً إن كان لذيذاً ويدافع عنه ما استطاع.. فلا يسمح لأحد بمقتضى الحرص الذي نسميه "غيرة" أن يشاركه فيه، ويدفع ذلك بكل ما يمكنه... والإنسان لفكرة يلزم الحرص في جميع أحواله، خوفاً على المستقبل. وزد على ذلك أن الإنسان في حاجة إلى التعاون بالضرورة، وهو في فطرته لا ينظر للتعاون بجميع أفراد الإنسان، فلا بد له من تعلق خاص يوجب عقد التعاون الخاص.. فلو ترك الإنسان مسترسلاً مع شهوته من غير أن تقيد طرق استعمالها بقانون يحفظ ثمرتها، ويكفل سلامة نتيجتها، لانهل عقد نظام الإنسان، وفست أركان سعادته، ولم يصن وجوده من غائلة الزوال وعاديات الفناء..

فتبين من ذلك أن الشهوة الحيوية المغروسة في الإنسان لم تكن مقصودة لذاتها بل هي آلة لنيل الإنسان مآربه التي لا يستطيع المقام بدونها، كبقائه في عالم الوجود يتعاون على جلب المنافع ودفع المكروه بزوجه وأولاده وأخيه وعمه ونحو ذلك ممن ارتبط معه بالرابط المعروف بصلة النسب والقربة، الذي يعد من أقرب الروابط الإنسانية التي لولاها لاختل نظام الوجود الإنساني بالمرّة.

لما اقتضى النظام الإلهي أن يخلق الإنسان محتاجاً في أن يقوم بدنه مدة ما مع حد ما من الراحة إلى أن يتخذ مما خلق الله له في الأرض ما لم يكن حاصلاً، وأن يكون منه ما لم يكن كائناً بحسب الخلقة الأصيلة، ركب فيهم القوة النطقية، واللطفية الفكرية، التي بها يكون ترتيب ما يحتاجون إلى اتخاذه من المطعم والمشرب، والملبس والسكن، فقادتهم الفكرة إلى اتخاذه الصنائع وآلاتها، على حسب استدعاء الحاجات ومقتضياتها، واضطروهم ذلك إلى الاجتماع... ومن البين أن مجرد صفاء الجوهر لا يكفي في ترتب الأثر عليه، بل لابد في ذلك من إعماله وتربيته

وإعداده لذلك الأمر العظيم، وتخليته عن جميع الأشغال سواه، فإن القوة الواحدة لا تكفي على البراعة لأمر متعددة، فاحتيج إذن إلى اتخاذ أرباب التعاليم ليقوموا لهم بالعلم والإرشاد إلى طريق العمل، ويقوم أرباب الأعمال بإخراج ذلك من القوة إلى الفعل، فقام كلٌ بواجبه، واعتاض كل من صاحبه... وانتشرت المعارف بين بني الإنسان، وغصت الأرض بالعلوم.

فكان العلم لسانًا آخر للمتكلم، إلا أن ما نطق به اللسان الحقيقي عرض سيال وما نطق به القلم جوهر لا يزال، فلصاحبه عند الذهول أن يرجع إليه، ولغيره من أهل لسانه أن يعول عليه، فسهل بذلك حفظ آثارهم وبث أفكارهم، وفرغوا من شغل عظيم، ووضع عنهم وزر جسيم، كان يعوقهم عن كثير من التعاليم، وكان من ذلك أن حفظ قول القائلين من جيل إلى جيل. فحصل لذلك التعاون في الأفكار وإيقاد سرج الاستبصار... فكم من وهم فاسد عنه اندفع.. فوضع القواعد وأقام الشواهد... وهكذا كل يسعى لتشييده، وإقامة حدوده وإحكام قوائمه وإظهار لملائمه، إلى أن يتم بيت المعارف، الذي هو أمان كل خائف، وهو حرم الله الذي من دخله كان آمنًا.. وكل ذلك بسر سير العلم الذي علم الإنسان ما لم يعلم وجمع الكل في صعيد واحد، ونادى فلباه كل قاصد، فهذا إيجاز في شأنه، ويسير من بيانه في تسيير العلوم وارتقائها، وتسهيل اقتباسها وإبدائها.. ومن أجل آثار العلم يعد من أعظم النعم..".

والإنسان الفاعل خلق في أحسن تقويم، كما خلق في نصب وكدح وتعب، كدح دائب، وعمل مستمر، فإذا كان قد خلق الإنسان في أحسن اعتدال وأفضل قوام "فيقسم جل شأنه أنه قوم الإنسان أفضل تقويم، وركبه أحسن تركيب، وأكد ذلك لأن الناس بغفلتهم عما كرمهم الله به من العقل كأنهم ظنوا أنفسهم كسائر أنواع العجماوات، يفعلون كما تفعل، لا يمنعون حياء ولا تردهم حشمة، خصوصًا وقد قال بعضهم: إن الإنسان خلق ميلاً للشر. فيقول سبحانه -تبييناً لفساد هذه المزاعم- إنه فطر الإنسان أحسن فطرة نفساً وبدناً، وكرمه بالعقل الذي ساد به على العوالم

الأرضية واطلع به على ما شاء الله من العوالم السماوية.. والإنسان كان صلاحًا كله، ولم يشذ عن الجماعة منه فرد، تلك كانت أيام القناعة بما يتسر من العيش، وشدة الإحساس بحاجة كل فرد إلى الآخر في تحصيله وفي دفع العوادي عن النفس.. تنبهت الشهوات بعد ذلك وتخالفت الرغبات فنبت الحسد والحقد، وتبعه التقاطع والتقاتل، واستشرى الفساد بالأنفس حتى صارت الأمانة عند بعض الحيوان أفضل منها عند الإنسان، فانحطت بذلك نفسه عن مقامها الذي كان لها بمقتضى الفطرة.. ثم رددناه أسفل سافلين.. أي صيرناه أسفل من كثير من الحيوانات.. فالحيوان المفترس إنما يصدر في عمله عن فطرة فطر عليها لم ينزل عن مقامه، ولم ينحط عن منزلته في الوجود، أما الإنسان فبإهماله عقله، وجهله بما ينبغي أن يعمل لتوفير سعادته وسعادة إخوانه ينقلب أرذل من سائر أنواع الحي. ولكثر ما قلت: "إذا فسد الإنسان فلا تسلم عما يصدر عنه من هذيان أو عدوان".

والكدح عمل الإنسان لنفسه من خير أو شر... ووصل الوصف (بإلي) إذ قال "كادح إلى ربك... ليدل على أنه أراد من الكدح معنى فيه سير وانتهاء، فهذا النداء الرباني يحوله الأستاذ الإمام "لنداء حركي"... "كأنه يقول -والله أعلم- يا أيها الإنسان السادر في غلوائه، الصادر في عمله عن أهوائه، الغافل عن مصيره، الجائر عن جادة الحق في مسيره.. لا تظن أنك خالد، وأنت مقيم فيما أنت له جاهد، وأنت -إن آذيت الخلق، وازدريت الحق، واغتررت بالحول والقوة، وسلمت عنانك للشهوة- ضمنت لنفسك التمتع بما تكسب، والبقاء فيما فيه تتعب وتنصب.. وكل خطوة في عملك فهي في الحقيقة خطوة إلى أجلك.. وهناك لقاء الله، فإن الموت يكشف عن الروح غطاء الغفلة، ويجلو لها وجه الحق... وهناك يرفع الالتباس ويعرف كل عامل ما جرّ إليه عمله..".

ومن جملة النظرة للإنسان، النظر النوعي الذي كان موضع اهتمام الأستاذ الإمام مؤكداً على رؤية الإسلام القرآنية من "... أن الذكر والأنثى متساويان عند الله (تعالى) في الجزاء، متى تساويا في العمل حتى لا يغتر الرجل بقوته ورياسته على المرأة فيظن أنه أقرب إلى الله منها، ولا تسيء المرأة الظن بنفسها فتتوهم أن جعل الرجل رئيساً عليها يقتضي أن يكون أرفع منزلة عند الله (تعالى) منها.

وقد بين (تعالى) علة هذه المساواة بقوله: { بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ } سورة آل عمران: الآية 195... فالرجل والمرأة لا فرق بينهما في البشرية ولا تفاضل بينهما إلا بالأعمال، أي وما تترتب عليه الأعمال ويترتب هو عليها من العلوم والأخلاق.... { فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَى بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ } سورة آل عمران: الآية 195.

وكانت هذه الرؤية التأسيسية للإنسان مدخلا للشيخ الإمام أن يهتم اهتماماً خاصاً بقضية المرأة والأسرة، وتركيزه على إصلاحها وإقامتها على أسس سليمة باعتبارها الضمان لتكوين المجتمع والأمة. فهو يتحدث عن أن "الأمة التي تتألف من البيوت (العائلات)، صلاحها صلاحها، ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة.. فمن فسدت فطرته لا خير فيه لأهله، فأى خير يرجى منه للبعداء والأبعدين؟

ومن لا خير فيه للناس لا يصلح أن يكون جزءاً من بنية أمة، لأنه لم تنفع فيه اللحمة النسبية -التي هي أقوى لحمة طبيعة تصل بين الناس- فأى لحمة بعدها تصله بغير الأهل، فتجعله جزءاً منهم، يسره ما يسرهم، ويؤلمه ما يؤلمهم، ويرى منفعتهم عين منفعته، ومضرته عين مضرته، وهو ما يجب على كل شخص لأتمته..

إنها الرؤية الواصلة بين الإنسان والأمة تتوسطها "الأسرة" لتعبر عن مجال تدريبي في شأن العلاقات والتفاعلات بحيث توصل بعد التفاعل الاجتماعي للإنسان.

هذه الرؤية للإنسان طبيعة وفعلاً، دوراً ووظيفة، قدرة واختياراً، مكنة وأهلية، عقلاً ومسئولية، والتي تتعدى في علاقاته وتكويناته الاجتماعية والجمعية إنما تشكل منظومة كلية مترتبة فاعلة، وهي منظومة متواصلة بالكون الأكبر. إذ كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير "العالم"، والكون الصغير "الإنسان" ..

الرؤية الكونية: عالم الوجود ساحة الفعل الحضاري

يستهل الإمام محمد عبده من أن العالم مخلوق لله (سبحانه) هذا الخلق الأول الذي خرج به العالم من العدم.. أما الخلق الثاني.. فإنما يتعلق بالبعث والنشور، في إشارة إلى خلق يتعلق بقدرة الله على إعادة الخلق.. إنه على رجهه لقادر.. أما الخلق الثالث.. فهو عبارة عن تجدد العالم واستمراره لأن تأثير الله في الكون لا يقف عند خلقه في ستة أيام، بل إن مظاهر هذا الخلق تتجدد وتستمر يومياً كما هو مشاهد لنا. ويوضح عبده هذه المسألة في تفسيره لقوله (تعالى): { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ } سورة يونس: الآية 31. وبعد أن يورد الإمام الأشكال الثلاثة للخلق، يشير إلى أن قدرة الله لا تقتصر على عملية الخلق فقط، بل تشمل حفظ الكون وصيانته بمن فيه، أشار إلى ذلك في تفسيره لسورة النبأ بما حملت من ظواهر كونية.

والإنسان -عند محمد عبده- لا ينفصل عن "العالم"، فالإنسان يفكر والعالم مادة التفكير، الإنسان ذات والعالم موضوع، الإنسان يعرف الله ويفكر في قدرته وآياته والعالم محل هذه القدرات وتلك الآيات، كما يرى أن العالم الطبيعي محكوم بالتغير والحركة وهما من أقوى أدلة وجود الخالق، ويشير إلى العديد من الآيات التي تؤكد على حركة العالم وتغيره.

والإمام رأى في بعض جوانب "نظرية النشوء والارتقاء" ما لا يتعارض مع الدين، فهو يفرق بين نظرية الارتقاء في مجموعها وبين إحدى نتائجها فيها يتعلق بأصل الإنسان.. وهو يعتبر

"تنازع البقاء" و"البقاء للإصلاح" من سنن الله في الكون وفي تاريخ الإنسان. وتحدث عن سنن الأكوان وكذا سنن الإنسان، والسنن الحاكمة للطبيعة والأخرى الحاكمة للنفس والثالثة التي تحكم الجماعات". وتحدث في مسائل فلسفية من مثل أصل الكون وحدوث العالم، ومسائل دينية تتعلق بنسق الغيب من بعث وحشر.

هذه الرؤية الكلية للعالم والكون أسفرت عن نفسها في متوالية كونية منتظمة تأثر فيها بالنظريات العلمية التي حققتها البشرية، فهو يربط بين أبحاث العلماء التي تهتم بقصة خلق الأرض وبين آيات القرآن.

ومن نافلة القول أن نؤكد أن هذه النظرة الكونية امتدت لدى الأستاذ الإمام من مجرد الحديث عن خلق العالم إلى الحديث عن مختلف الأنساق الفكرية للإنسان والكون والمجتمع بما يمنح الحياة قيمة ومعنى، وباعتبار أن السلوك الإنساني لا ينطلق ضمن أسس نفسية وظروف مادية فحسب بل يستند أيضًا إلى الإرادة الإنسانية والهداية العقلية. ومن ثم تحمل هذه النظرة الكونية التأسيس الفكري لمختلف المواقف العملية وتمنح المسيرة قيمتها، إنها في حقيقة الأمر تمنح الوجود معنى، كما تعمق عناصر المسؤولية الإنسانية، ومن ثم تصل بين الكون والإنسان والحياة جميعًا في مسيرة تربوية حول المعمار الكوني والارتفاق التفاعلي معه.

وفي إطار هذه الرؤية الكونية يمكن أن نشير إلى عناصر "التربية الكونية" والتي تتمثل في عملية التدبر والتفكير "...فمن أراد أن يزداد علمًا فليطلبه من البحث في الكون وعليه بدراسة ما كتبه الباحثون فيه من قبل، وما اكتشف من شؤون، وليأخذ من ذلك بما قام عليه الدليل الصحيح لا بما يتخرص به المتخرصون ويخترعونه من الأوهام والظنون، وحسبه أن الكتاب أرشده إلى ذلك وأباحه له...". هذا النظر الكوني والإباحة للنظر والبحث في الكون... بالصيغ التي تبعث الهم وتشوق النفوس، ككون كل ما في الأرض مخلوقًا لأجلنا محبوبًا على منافعنا (مسخرًا) هو

مما امتاز به الإسلام في ترقية الإنسان.. ولذلك جاء القرآن يلح أشد الإلحاح بالنظر العقلي، والتفكر والتدبر والتذكر، فلا تقر أمانة قليلاً إلا وتراه يعرض عليك الأكوان ويأمرك بالنظر فيها واستخراج أسرارها واستجلاء حكم اتفاقها واختلافها.. وإكثار القرآن من شيء دليل على تعظيم شأنه ووجوب الاهتمام به...."

وعلاقة الإنسان بالكون علاقة أكيدة تحددها واحدة من الآيات { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً } سورة البقرة: الآية 29، يصور لنا قوله (تعالى): { خَلَقَ لَكُمْ } قدرته الكاملة ونعمه الشاملة، وأي قدرة أكبر من قدرة الخالق؟، وأي نعمة أكمل من جعل كل ما في الأرض مهيباً لنا ومعداً لمنافعنا؟، وللانتفاع بالأرض طريقان:
أحدهما - الانتفاع بأعيانها في الحياة الجسدية.
وثانيهما - النظر والاعتبار بها في الحياة العقلية.....

هذه التربية الكونية إنما هي كتاب من كتب التوحيد، فكثير من الآيات القرآنية تشرح لنا بعض الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله (تعالى) ورحمته الواسعة.. منها خلق السموات والأرض... واختلاف الليل والنهار.. والفلك التي تجري في البحر.. وما أنزل الله من السماء من ماء.. وإحياء الأرض بعد موتها.. وتصريف الرياح.. والسحاب المسخر بين السماء والأرض.. "ومن لا يعرف أسرار هذه الكائنات، وإنما ينظر إلى ظواهرها فيراها كما تراها العجماوات، فهو لا يفهم معنى كونها آيات، لأنه أهمل آلة الفهم التي امتاز بها وهي العقل، ولذلك أخبر الله (تعالى) عن هذه الأجناس كلها أن فيها { لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } ، فإنهم هم الذين ينظرون في أسبابها ويدركون حكمها وأسرارها، ويميزون بين منافعها ومضارها، ويستدلون بما فيها من الاتساق والإحكام والسنن التي قام بها النظام، على قدرة مبدعها وحكمة، وفضله ورحمته، وعلى استحقاقه

للعباداة دون غيره من بريته، وبقدر ارتقاء العقل في العلم والعرفان، يكمل التوحيد في الإيمان، وإنما يشرك بالله أقل الناس عقلاً وأكثرهم جهلاً..".

إن أزمة الرؤية الكونية التي يلحظها الأستاذ الإمام هي أزمة مركبة لأنها تترك كثيرا من الآثار والمآلات السلبية على القيمة التوحيدية العليا وأنساق المعارف وأنساق القيم وكذلك أنساق السلوك، وقبل كل هذا أتساق المصالح والمقاصد، ومن هنا اعتبر الأستاذ الإمام ذلك أكبر خذلان للدين: ".. أليس أكبر خذلان للدين وجناية عليه ألا ينظر المنتسبون إليه في آياته التي يوجهه كتابه إلى النظر فيها، ويرشداهم إلى استخراج العبر منها؟، أليس من أشد المصائب على الملة أن يهجر رؤساء دين كهذا الدين العلوم التي تشرح حكم الله وآياته في خلقه ويعدوها مضغفة للدين أو ماحية له، خلأً لكتاب الله الذي يستدل لهم بها ويعظم شأن النظر فيها؟، بلى.. وإنهم ليصرون على تقاليدهم هذه وليس عليها حجة وإنما اتبعوا فيها سنن قوم ممن قبلهم..".

هل يمكننا أن نشرع في قراءة الكتاب الكوني، كما نطالع الكتب ونستفيد منه ما استطعنا؟ "نعم إن هذا الكون هو كتاب الإبداع الإلهي المفصح عن وجود الله وكماله، وجلاله وجماله، وإلى هذا الكتاب الإشارة بقوله (تعالى): { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا } سورة الكهف: الآية 109، فكلمات الله في التكوين باعتبار آثارها ومصادقها هي آحاد المخلوقات والمبدعات الإلهية، فإنها تنطق بلسان أفصح من لسان المقال، لكن لا يفهمه الذين هم عن السمع معزولون، وللعلم معادون، الواهمون أن معرفة الله تقتبس من الجدليات النظرية والأقيسة المنطقية دون الدلائل الوجودية الحقيقية، ولو كان زعمهم حقيقة لا وهمًا، لكان الله (سبحانه) استدل في كتابه بالأدلة النظرية الفكرية، وذكر "الدور" و"التسلسل" وغير ذلك من الاصطلاحات الكلامية، ولم يستدل بالسماء والأرض والليل والنهار

والفلك والمطر وتأثيره في الحياة وغير ذلك من المخلوقات التي أرشدنا القرآن إلى النظر فيها، واستخراج الدلائل والعبر منها. ألا إن لله كتابين: كتابًا مخلوقًا وهو الكون، وكتابًا منزلًا وهو القرآن، وإنما يرشدنا هذا إلى طرق العلم بذلك بما أوتينا من العقل..".

إنها إشارة مباشرة للجمع بين القراءتين: بين قراءة آيات القرآن وقراءة آيات الكون، وهي التي تؤسس نظامًا معرفيًا توحيدياً يؤصل لمعاني قراءة الفاعلية في الكون، إن المعرفة الكونية والوعي الكوني أساسان بل شرطان للفاعلية الاستخلافية والعمرانية في هذا الكون.

النظرة للحياة وأنساق السلوك والوصل المتفاعل: الاستخلاف والاستخلاف والتزكية

والعمران

الحياة -وفق رؤية الشيخ الإمام- هي أصل من أصول الإسلام يتحرك صوب الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة، وأن الدنيا مزرعة للآخرة، الكون مجال الحركة العمرانية والإنسان محل تربية التزكية، والحياة حركة تفاعل واستخلاف للإنسان في الكون ".الحياة في الإسلام مقدمة على الدين. أوامر الحنيفية السمحة إن كانت تخطف العبد إلى ربه، وتملاً قلبه من رغبته، وتغعم أمله من رغبته، فهي مع ذلك لا تأخذه عن كسبه، ولا تحرمه من التمتع به، ولا توجب عليه تقشف الزهادة، ولا تجشمه في ترك الميزات ما فوق العادة. صاحب هذا الدين (ع) لم يقل "بع ما تملك واتبعني"، ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله: "الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس". وهكذا تجد القاعدة قد عمّت (في حفظ النفس): "صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان"؛ فترى الدين قد راعى في أحكامه سلامة البدن كما أوجب العناية بسلامة الروح.. أباح الإسلام لأهله التجميل بأنواع الزينة، والتوسع في التمتع بالمشتبهات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية، والوقوف عند الحدود الشرعية... ووضع قانونًا للإنفاق وحفظ المال...".

وكأن الأستاذ يشير إلى المقاصد العامة الكلية للشريعة وهي حافظة للحياة وحاضنة لفاعليات حركتها (من نفس ونسل وعقل ومال).. وكانت تلك الرؤية موصولة بالنهاي عن الغلو في الدين فقد "...خشى على المؤمن أن يغلو في طلب الآخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها، فذكرنا -بما قصه علينا- أن الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا في الدنيا، إذ قال "وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين".

.. جمع للإنسان أجزاء حقيقته... جعله من أهل الدنيا كما هو من أهل الآخرة.. وليس في الغريزة الإنسانية أن يقف بها الطلب عند محدود، أو ينتهي بها السعي إلى غاية لا مطالع للرغبة وراءها، بل خصّها الله بالمكنة من الرقي في أطوار الكمال من جميع وجوده إلى ما شاء الله أن ترقى بدون حد معروف..". "فإذا جمع سائق الأنفس ومزجيتها ومرشدها وهاديتها، بين شاحذين: شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا، وشاحذ الرغبة في النعيم الدائم في الآخرة، فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن الرضى في الدنيا بالدون وفي الآخرة بعذاب الهون.. فتطلب منافعها من هذا الكون الذي وجدت فيه، ووجد لها، ففسير في مناكب الأرض ولا نكتفي عن الكل بالبعض..". بل الحياة هي حياة تتعلق بالتفاعل مع كل العالم والإنسانية..". .. كيف يتسنى للمسلم أن يشكر الله حق شكره، إذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره، لينفذ من مظاهره إلى سره، ويقف على قوانينه وشرائعه، ويستخدم كل ما يصح لخدمته في توفير منافعه؟

يشكر الله إذا توافى في ذلك وقد أرشده الله في كتابه وبسنة نبيه إلى أن عالمه إنما خُلق لأجله، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله، انظر إلى لطف الإشارة في الآية (قل من حرم زينة الله) إلخ حيث قال: (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون)، فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله (تعالى) فيما يرفه به معيشتهم، ويجمل به هيتئتهم، ويحلى زينتهم..".

وفي أصول فاعلية المسلمين في حياتهم وفي طلبهم والتوسل من كل طريق بالعلم الرافع والنافع للحياة: .. المسلمون مسوقون بنابل من دينهم إلى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد، ولا يرضيهم من ذلك ما دون الغاية، ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك إلا بالعلم، فهم محفوزون أشد الحفز إلى طلب العلم وتلمسه في كل مكان وتلقيه من أي لسان، فإذا لاقاهم العالم في أي سبيل، أو عثروا به في أي جيل، أو ظهر لهم من أي قبيل، هشوا له وبشوا، ونصبوا إليه وكمشوا (سارعوا) وشدوا به أو أحدهم، وعقدوا عليه خناصرهم، ولا يبالون ما تكون عقيدته إذا نفعتهم حكمته: "الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها"، ألم يأتهم عن ربهم: "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ"، ألم يسمعوا في وصفهم قوله: (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)... تطلب العلم أولاً لحاجتك إليه في تقويم معيشة، أو ترقية حال، أو دفاع عن نفس وملة، ثم لا تلبث إذا أوغلت فيه أن تجد اللذة في العلم نفسه. "وعلة ذلك ظاهرة، فإن العلم مسرح نظر العقل، والعمل قوة من أفضل القوى الإنسانية بل هي أفضلها على الحقيقة.. فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لا شيء عند الإنسان ألد من كشف المجهول، وإحراز المجهول.. على أن العلم كان من ضروريات معيشة المسلم أو حاجاتها، فإذا طفق يستتبط ماءه للضرورة، ويستحلي سناؤه للحاجة، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه، وشاغله للضرورة عن حاجات حسه، حتى يدخل معه في رسمه، كما وقع لكثير من المسلمين. قال إمام جليل (هو الإمام أبو حامد الغزالي) من أئمتهم: "طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله..".

في أصول واصله بين التوحيد والإنسان والكون والحياة تقع عمليات ثلاث: الاستخلاف أولها، والتزكية ثانيها، والعمران ثالثها وغايات الحياة والفاعلية فيها.

(3) الاستخلاف والتزكية والعمران: الأصول الواصلة بالرؤية التوحيدية

الإنسان والكون والحياة ثلاثية مهمة في العناصر الكلية لرؤية العالم تشكل كما أكدنا الساحة الحضارية والفاعلية فيها. إلا أن هذه الثلاثية المتعلقة بالساحة الحضارية ترتبط بثلاثية أخرى: استخلاف تقتضيه الرؤية التوحيدية، وتركيزية ترتبط بالإنسان الفاعل، وعمران يتعلق بالأبدان والأكوان والحياة في عمومها وكافة مجالاتها الحضارية.

الاستخلاف: رؤية قرآنية

ناقش الأستاذ الإمام بعض القصص التي تشير إلى أن آدم ليس أول الأحياء العاقلة التي سكنت الأرض وعدّ ذلك مذهباً أول في تفسير الخليفة. إلا أنه أكد أنه ليس لهم -أي من يحكون تلك القصص- سند في الإسلام يحتج به عليها..

أما ما مال إليه الأستاذ الإمام بالمراد "إني جاعل في الأرض خليفة" فهو أنه خليفة عن الله سبحانه وتعالى .. ولهذا شاع الإنسان خليفة الله في أرضه.. والظاهر -والله أعلم- أن المراد بالخليفة آدم ومجموع ذريته؛ أي مجمل الإنسان، ولكن ما معنى هذه الخلافة وما المراد من هذا الاستخلاف؟ هل هو استخلاف بعض الإنسان على بعض أم استخلاف النوع على غيره؟

يقول الأستاذ الإمام: "جرت سنة الله في خلقه بأن تعلم أحكامه للناس وتنفذ فيهم على السنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه في ذلك، وكما أن الإنسان أظهر أحكام الله وسننه الوضعية أي الشرعية (لأن الشرع وضع إلهي)، كذلك أظهر حكمه وسننه الخلقية الطبيعية فيصح أن يكون معنى الخلافة عامًا في كل ما يميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات..." فالإنسان "خلق الله ضعيفًا كما قال في كتابه (وخلق الإنسان ضعيفًا)، وخلق جاهلاً كما قال (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا)، ولكنه على ضعفه عبرة لمن يعتبر، وموضع لعجب المتعجب؛ لأنه مع ضعفه يتصرف في الأقوياء، ومع جهله في نشأته يعلم جميع

الأسماء.. ويعطي قوة تتصرف بشعوره وإحساسه تصرفاً يكون له به السلطان على هذه الكائنات، فيسخرها ويذلها... تلك القوة الغريبة وهي التي يسمونها العقل.. فهي التي تغني الإنسان عن كل ما وهب للحيوان في أصل الفطرة.. فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود والرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل، فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعه في الكون تصرفاً لا حد له بإذن الله وتصريفه، وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب والأحكام الطبيعية ليظهر بها أسرار خليفة، وملكه الأرض وسخر له عوالمها وأعطاه أحكاماً وشرائع حد فيها لأعماله وأخلاقه حدًا يحول دون بغي أفراده وطوائفه بعضهم على بعض، فهي تساعد على بلوغ كماله لأنها مرشد ومرب للعقل الذي كان له كل تلك المزايا فلماذا كله جعله خليفة في الأرض وهو أخلق المخلوقات بهذه الخلافة...".

ظهرت آثار الإنسان في هذه الخلافة على الأرض، ونحن نشاهد عجائب صنعه.. فهو يتقن ويتدع، ويكتشف ويخترع، ويجد ويعمل.. أليس من حكمة الله، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، أن جعل الإنسان بهذه المواهب خليفة في الأرض، يقيم سننه: ويظهر عجائب صنعه، وأسرار خليقته وبدائع حكمه ومنافع أحكامه؟

وهل وجدت آية على كمال الله تعالى وسعة علمه أظهر من هذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم؟ "...." "... أظهر (الله للملائكة) أن الإنسان يكون خليفة بالعلم.. (وعلم آدم الأسماء كلها) أي أودع في نفسه علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين.. هذه القوة العلمية عامة للنوع الآدمي كله.. وأن هذا العالم لما استعد لوجود هذا النوع الإنساني واقتضت الحكمة الإلهية إيجاده واستخلافه في الأرض...".

التزكية: عملية تربوية

أما الوصلة الثانية فتتعلق بعملية "التزكية" التي تبلغ الفلاح من جراء الاهتمام بها.. فيؤكد الأستاذ في تفسير آية (قد أفلح من زكاها)، أي قد ربح وفاز من زكى نفسه ونماها وأعلاها حتى بلغ بها ما هي مستعدة له من كمال القوى العقلية والعملية، وأثمرت بذلك ثمراتها الطيبة له ولمن حوله من الناس. "... في مقابل التزكية تكون القدسية" التي تشير إلى "النقص والإخفاء. ومن سلك سبيل الشر وطاوع داعي الشهوة البهيمية، فقد فعل ما يفعل سائر البهائم، فلم يظهر عمل القوة العاقلة التي خص بها الإنسان، فاندرج صاحب تلك النفس في عداد سائر الحيوان دون الإنسان، وبذلك يختفي من بين العقلاء، ويذهب امتياز الذي كرم الله به نوعه. وهل تكون خيبة أعظم، وخسران أكبر من هذا المسخ الذي يجلبه الشخص على نفسه بسوء عمله؟.."

ومثلما ارتبطت عملية التزكية بعمليات تعلم الكتاب والحكمة كأنها تشكل مصادرها ومقاصدها (ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) أي تزكيته إياهم وتطهيرهم من العقائد الزائفة، ووساوس الوثنية وأدرانها، والعقائد هي أساس الملكات "... وتعليم الكتاب أن هذا الدين قد اضطرهم إلى تعلم الكتابة بالقلم وأخرجهم من الأمية لأنه دين حث على المدنية وسياسة الأمم.. وأما الحكمة فهي أسرار القلوب وفقه الأحكام وبيان المصلحة فيها والطريق إلى العمل بها ذلك الفقه الذي يبعث على العمل، أو هي العمل الذي يوصل إلى هذا الفقه في الأحكام، أو طرق الاستدلال ومعرفة الحقائق ببراهينها؛ لأن هذه الطريقة هي طريقة القرآن وسنته في العقائد وكذا الآداب والعبادات.."، وكأن عملية التزكية تتعلق بأنساق العقائد وأنساق القيم على حد سواء وهي كذلك ترتبط بأنساق السلوك فيتحدث الأستاذ الإمام عن التزكية كتهذيب للأنساق الأخلاقية والقيمية من "... تطهير النفوس من الأخلاق السافلة والردائل الممقوتة ويخلقها بالأخلاق الحميدة بما لكم فيه من حسن الأسوة، لا بالقهر والسطوة..." وهو يتحفظ في تفسير الجلال للتزكية بكونها

".. التطهير من الشرك.."، فيجعل الربط بين أنساق العقيدة وكذا الأخلاق والقيم أمرًا لا يجب التغافل عنه "... فإن الإسلام كما جاء بالتوحيد الماحي للشرك، جاء بالتهذيب المطهر من سفاسف الأخلاق وقبائح العادات والمعاصي" وبعد ذكر التربية العملية بالأسوة الحسنة ذكر أمر التعليم فقال (ويعلمهم الكتاب والحكمة) أي الكتاب الإلهي أو الكتابة التي تخرجون بها من ظلمة الأمية والجهل إلى نور العلم والحضارة... وأما الحكمة فهي العلم المقترن بأسرار الأحكام ومنافعها، الباعث على العمل وفسرها البعض بالسنة..".

وهذا المعنى -فقه الدين ومعرفة أسرار الأحكام- غير التزكية بيد أنه يتصل بها ويعين عليها، حتى يطابق العلم العمل.

ووردت التزكية على سبيل المثال في مجالات وأفعال كثيرة بحيث تطهر أنساق السلوك وترقيها، ومنها ما يتعلق بتزكية الأموال وتطهيرها بالصدقة مما يحفظ بركتها ونمائها، وكذلك النهي عن عضل النساء بقيده وشرطه، فالزكاء الوارد بالآية (ذلكم أزكى لكم وأطهر) بما يعني الزكاء والنماء والبركة في الشيء.. والمراد أنه مزيد في نماء متبعيه وصلاح حالهم ما بعده فريد يفضل، وأنه أظهر لأعراضهم وأنسابهم وأحفظ لشرفهم وأحسابهم"، فصار من الزكاء والتزكية رفع جهل الناس "... بوجوه المصالح الاجتماعية على كمالها" ورد هؤلاء الذين "لا يرون للنساء شأنًا في صلاح حياتهم الاجتماعية وفسادها، حتى علمهم الوحي ذلك..

وإن ما جاء به القرآن من الأحكام لإصلاح حال البيوت بحسن معاملة النساء لم تعمل به الأمة على وجه الكمال، بل نسيت معظمه في هذا الزمان، وعادت إلى جهالة الجاهلية. ولهذا الجهل السابق ولتوهم الذين يسيئون معاملة النساء من الرجال أنهم يفعلون ما هو مصلحة لهم ومحافظة على شرفهم، ختم هذه المواعظ والأحكام والحكم بقوله: { وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } سورة البقرة: الآية 232..".

العمران من الدين عمارة الإنسان والأكوان والحياة

كما أكدنا -في نظر الأستاذ الإمام إلى "الحياة"- أن الرؤية الإسلامية قد جمعت بين مصالح الدارين، فإن البيان الذي يتعلق بالآيات هو بيان تُعد للتفكر { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ } سورة البقرة: الآية 266، هذا **البيان التفكري** -إن صح هذا التعبير ليس خاصاً بمصالح الدنيا وحدها، ولا بطلب الآخرة على انفرادها وإنما هو متعلق بهما جميعاً فقال (في الدنيا والآخرة) أي تتفكرون في أمورهما معاً، فتجتمع لكم مصالح الجسد والروح فتكونون أمة وسطاً، وأناساً كاملين، لا كالذين حسبوا أن الآخرة لا تنال إلا بترك الدنيا وإهمال منافعها ومصالحتها بالمرّة فخسروها وخسروا الآخرة معها، لأن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا كالذين انصرفوا إلى الذات الجسدية كالبهائم ففسدت أخلاقهم وأظلمت أرواحهم وكانوا بلاد على الناس وعلى أنفسهم، فخسروا الآخرة والدنيا معها. وهذا الإرشاد إلى التفكير في مصالح الدنيا والآخرة جميعاً، هو معنى ما جاء في الدعاء بقوله (تعالى): { رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً } سورة البقرة: الآية 201، فالله (تعالى) يبين في مثل هذه الآيات .. "إن الإسلام هاد ومرشد إلى توسيع دائرة الفكر واستعمال العقل في مصالح الدارين، وقدّم الدنيا في الذكر، لأنها مقدمة في الوجود بالفعل، وكل ما أمرنا اله (تعالى) به وهدانا إليه فهو من ديننا، ولذلك قال علماؤنا إن جميع الفنون والصناعات التي يحتاج إليها الناس في معاشهم من الفروض الدينية إذا أهملت الأمة شيئاً منها فلم يقدّم به من أفرادها من يكفيها أمر الحاجة إليه كانت كلها عاصية لله (تعالى) مخالفة لدينه، إلا من كان عاجزاً عن دفع ضرر الحاجة وعن الأمر به للقادر عليه، فأولئك هم المعذورون بالتقصير...".

من رحم هذه الرؤية الكلية لمعاني الحياة والبيان الفكري والأمة الوسط ومصالح الدارين، ومصالح الدنيا كفروض دينيه وُلدت العملية العمرانية والواصلة التي تتعلق بالعمران بين الإنسان والكون والحياة..

".. على هذا قام صرح مجد الإسلام عدة قرون، كان المسلمون كلما عرض لهم شيء بسبب التوسع في العمران يتوقف عليه حفظه وتعميم دعوته النافعة قاموا به حق القيام، وعدوا القيام به من الدين عملاً يمثل هذه الآلية وغيرها من الآيات، ومضوا على ذلك قرونًا كانوا فيها أبسط الأمم وأعلاها حضارة وعمرانًا، وبرًا وإحسانًا..."

هذه هي الرؤية العمرانية التي جعلت ومن أقرب طريق "العمران من الدين" ليتأسس بذلك شعارًا عمليًا حياتنا وكونيًا، وجعلت من أوجب الواجبات أن توصل معاني العمران في مواجهة الطغيان والخراب وكل ما يؤذن بخراب العمران...

فماذا حدث من انقطاع هذه الرؤية العمرانية أو اختلال بعض أركانها وفقدان بعض عناصرها وشروطها؟! يجيب الأستاذ الإمام في بصر نقدي حاد يعين ويحدد ويرصد.

".. إلى أن غلا أقوام في الدين واتبعوا سنن من قبلهم في إهمال مصالح الدنيا، زعمًا أن ذلك من الزهد المطلوب، أو التوكل المحبوب، وما هو منها في شيء!..."

".. وكان من أثر ذاك أن أهملت الشريعة فلا توجد حكومة حكومة إسلامية على وجه الأرض تقيمها، لأنه لا يوجد من أهلها من يصلح لحكم الناس في هذه العصور التي اتسعت فيها مصالح الأمم والحكومات، بالتوسع في العلوم والصناعات وارتباط العالم ببعضه ببعض، ثم صار علماء المسلمين أنفسهم يعدون الاشتغال بالعلوم والفنون التي تتوقف عليها مصالح الدنيا صادة عن الدين مبعدة عنه، بل يوجد فيهم من يقول إنها مفسدة لعقائده مفضية إلى الخروج منه. وهذا هو دخول حجر الضب الذي دخله من قبلنا وهو كما ترى خروج عن هدي القرآن.." "وقد يقال

إذا كان المنقطع لعلوم الدين لا يأمن على عقيدته أن تذهب ودينه أن يفسد إذ هو تفكر في مصالح الدنيا وعرف العلوم التي لا تقوم هذه المصالح بدونها، فكيف يكون حال من يدرسون هذه العلوم الدنيوية من المسلمين وليسوا على شيء يعتد به من العلوم الدينية؟، لا جرم أن هذا قضاء على الإسلام بأنه آفة العمران وعدو العلم والنظام، وهو قضاء جائر يبطله القرآن، وتنقضه سيرة السلف الصالحين الذين سبقونا بالإيمان، ولكن أين من يتبعهما الآن؟..".

".. وقد قام فريق من الذين لم ينظروا في كتاب الله مرة نظرة معتبر، ولم يتلوا منه آية

تلاوة مفكر متدبر، يقسمون المسلمين قسمين:

* قسم لا تجب المبالاة بينه ولا يهتم به في شكه أو يقينه، فله أن يتعلم ما يشاء صحت

عقيدته أو فسدت، صلحت أعماله أو خسرت.

* أما القسم الآخر "... يجب أن يسان عقله عن كل فكر ويحاط بجميع الوسائل التي

تمنعه من النظر فيما عليه الناس من خير وشر، وما يعرض في الكون من نفع وضرر، كيلا

يفسد النظر عقيدته.. وهذا القسم هو الذي تقوض إليه الرياسة الدينية، ويعهد إليه بقيادة الأمة في

صلاح الأعمال وانتظام الأحوال...

فهل يتفق مثل هذا للخلف مع شيء من سنة السلف؟ ألا عاقل يقول لهؤلاء المشعوذين:

كيف ساغ في عقولكم أن يسلم إلى الجاهل قيادة العاقل؟ وكيف يتيسر حفظ الدين بالعدول عن

سنن المرسلين ومخالفة سير السلف الصالحين؟؟!..."

إنها الواصلة العمرانية التي تقطعت خيوطها، وانزوت عناصر فعلها وفعاليتها... هذه

الرؤى وتفقّد الأستاذ الإمام لها وافقادها مع ضرورتها، أنتجت خطة الإصلاحية.

(4) المنظومة السباعية وتشكيل رؤية العالم لدى الأستاذ الإمام

المنظومة السباعية تقوم على مفردات وكليات سبع، إن عقيدة لا تدفع ليست من عقيدة الإسلام في شيء، وإن شريعة لا ترفع ليست من شرعة الإسلام في شيء، وإن قيم لا تحكم ليست من قيم ومنظومة الإسلام في شيء، وإن أمة لا تجمع ليست من أمة الإسلام في شيء، وإن حضارة لا تفعل ولا تشهد ليست من الحضارة، وإن سنن لا تقضي ليست من منظومة سنن الإسلام في شيء، وإن مقاصد لا تحفظ ليست من المنظومة المقاصدية للشريعة في شيء، منظومة سباعية لا يمكن أن تكون في بنيتها وعلاقاتها إلا عنوانًا للفعل والتفعيل والفاعلية

(أ) العقيدة الدافعة:

من جملة ما اعتقده الأستاذ الإمام عقيدة دافعة إلى الفعل والفعالة والتفعيل في واقع الحياة؛ الإنسان الصالح المصلح لا يكون كذلك إلى بعقيدة حية دافعة؛ الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجرأة والإقدام؛ وخلق الشجاعة والبسالة ويبحث عن اقتحام المهالك التي ترجف لها قلوب الأسود؛ وتنشف منها مرائر النمر.. هذا الاعتقاد يطبع النفس على الثبات؛ واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال؛ ويحليها بحلي الجود والسخاء؛ ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها بل يحملها على بذل الأرواح؛ والتخلي عن نضرة الحياة.. كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة...

الذي يعتقد بأن الأجل محدود؛ والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء، كيف يرهب الموت في الدفاع عن الحق، وإعلاء كلمة أمته أو ملته، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك؟؟، وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشبيد المجد، على حسب الأوامر الإلهية وأصول الاجتماعات البشرية. "امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته

في قول الحق (الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل، لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم) الآية.

هذا الاعتقاد هو الذي تثبت به أقدام الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء، ويضيق بها بسيط النبراء، فكشفوهم عن مواقعهم، وردوهم على أعقابهم..

وقد أثبت القرآن الكسب والاختيار في نحو من أربع وستين آية، وقد جاء القدر في تقرير السنة الإلهية المعروفة بنواميس الكون، في القرآن الكريم....

ب) الشريعة الرافعة:

(الشريعة الرافعة)

{حكمة كلها - عدل كلها - رحمة كلها - مصلحة كلها }

{نسق المعرفة - نسق القيم - نسق السلوك - نسق المقاصد }

وكان الشيخ الإمام يجعل من الشريعة قاعدة من رؤية للعالم، الشريعة حكمة في أنساق معرفتها، عدل في نظام قيمها، رحمة في تجليات سلوكيتها، مصلحة في مقاصدها وعموم كلياتها وغاياتها ...

فالإمام ينطلق في تصويره للشريعة من معنيين: المعنى الأول ثابت غير متغير وهو ما يتعلق بأحكام الله تعالى ونبيه (صلى الله عليه وسلم)؛ أي الأصول الإسلامية، والمعنى الثاني وهو تفسير قواعد الدين كما انتهى إليه عمل الفقهاء والمجتهدين في الإسلام عموماً، وبهذا تكون الشريعة مفهوماً خاضعاً للاجتهاد وبما يتفق مع مصلحة الجماعة؛ وذلك بتفسير أصول الدين استناداً إلى العقل، فالشريعة من خلال فقهاءها "أصبحت..... جامدة، وإن الجمود في أحكامها جر إلى عسر حمل الناس على إهمالها"، ويقول الإمام ردّاً على اتهامات الإفرنج الذين يأخذون

مطاعنهم في الإسلام من سوء حالة المسلمين، مع جهلهم بحقيقة "شريعة" الإسلام، فالقرآن كمصدر لنقل الشريعة نظيف وإنما لوثة المسلمون .. بإعراضهم عن كل ما في القرآن واشتغالهم بسفاسف الأمور".

علاقة الفقهاء وعموم الناس بالشريعة هو الفيصل في قيام الشريعة بدورها كرافعة للنشاط والفاعلية لدى الإنسان، فيحمل الإمام على فقهاء اكتفوا بالشكل دون المضمون، الأمر الذي أدى بهم إلى الابتعاد عن الدين وأوامره، وفي ذلك يقول: "إن المسلمين ضيعوا دينهم، واشتغلوا بالألفاظ وخدمتها، وتركوا كل ما فيه من المحاسن والفضائل..."

مفهوم الشريعة والدين في متوالية ترتبط بالشريعة من النبوات والتبليغ ووظيفة

الدين ودوره: يفتتح عبده فهمه وإدراكه للشريعة من بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والأحكام عن الله خالق الإنسان وموفيه بما لا غنى عنه.. والاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الإيمان فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد أن الله أرسل رسلاً من البشر مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه، قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيهه لذاته وإقرار بسلطانه القاهر على عباده، وتقصيل الأحكام من فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها، ومن مثالب أفعال وأخلاق ينهاهم عنها... إلخ.

النبوات ومنزلتها من الاجتماع:

كما أن منزلة النبوات من الاجتماع هي منزلة العقل من الشخص، أو منزلة العلم المنصوب على الطريق المسلك، بل نصح إلى ما فوق ونقول: كمنزلة السمع والبصر، فإن الرسل أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة، فمن الناس من اهتدى بها فانتهى إلى غايات السعادة، ومنهم من غلط في فهمها أو انحرف عن هديها فانكب في مهاوي الشقاء.

مفهوم الدين:

والدين مستقر السكينة وملجأ الطمأنينة، به يرضى كل بما قسم له، وبه يدأب كل عامل حتى يبلغ الغاية من عمله، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة في الكون، وبه ينظر الإنسان إلى مَنْ فوقه في العلم والفضيلة وإلى مَنْ دونه في المال والجاه، اتباعاً لما وردت به الأوامر الإلهية ..

الدين أشبه بالبواعث الفطرية الإلهامية منه بالدواعي الاختيارية. الدين قوة من أعظم قوى البشر وإنما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى. فالدين حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات، والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما فتحت لأجله والإذعان لما تكشف من معتقدات وحدود أعمال.

الدين والشرعة والتوحيد:

جاء الدين الإسلامي بتوحيد الله (تعالى) في ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، فأقام الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والإرادة. وصار الإنسان بالتوحيد عبداً لله خاصة، حرّاً من العبودية لكل ما سواه، فكان له من الحق ما للحر على الحر، لا على في الحق ولا وضيع. ومن هنا فرض الإسلام على كل ذي دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله في كتبه وما قرر من شرعه.

وسطية الشريعة وأهم خصائصها البنائية:

ظهر الإسلام لا روحياً مجرداً ولا جسدانياً جامداً، بل إنسانياً وسطاً بين ذلك آخذاً من كل القبيلين بنصيب، فتوفر له من ملائمة القطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره، ولذلك سمى نفسه دين الفطرة، وعرف له ذلك خصومه اليوم، وعدّوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية. ثم لم يكن من أصوله "أن يدع ما لقيصر لقيصر" بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ويأخذ على يده في عمله.

جاء هذا الدين فهدى ضالاً، وألان قاسياً، وهذب خشناً، وعلم جاهلاً، ونبه خاملاً، وأثار إلى العمل كسلاً، وأقدر عليه وكِلاً، وأصلح من الخلق فاسداً، وروج من الفضيلة كاسداً، ثم جمع متقرفاً ورأب متصدعاً، وأصلح مختلاً ومحا ظلماً وأقام عدلاً، وجدد شرعاً.. ومكن للأمم التي دخلت فيه نظاماً امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه، فكان الدين بذلك عند أهله كمالاً للشخص، وألفاً في البيت، ونظاماً للملك.. وظهرت به آثار النعمة في جميع شئونهم، ولم يفت العلم حظه من عنايته، بل كان قائده في جميع وجوه سيره.

الشرية الرفعة للفعل لدى الإنسان المسلم:

وهكذا كان الإسلام مهماً للمسلمين يحثهم إلى جلائل الأعمال، ومصباحاً لبصائرهم يسترشدون به في استعراف الأحوال وتقويم الأفكار، وعاطفاً يعطف قلوبهم على الأمم بالعفو والرحمة وحسن المعاملة، حتى رضيتهم الأرض سادة لها وقادة لسكانها، وكان من أمرهم وأمره ما هو معلوم.

متلقو الشريعة: بين رفعة الشريعة والاستجابة المخلدة إلى الأرض:

*المسلم العام.

وقد ضل المسلم بعد ذلك في طلب العلم؛ فظن الرجل أن غاية ما يفرضه الدين عليه معرفة الفرائض والوضوء والصلاة والصوم في صورة أدائها، أما ما يتعلق بسر الأخلاق فيها، ووسيلة قبولها عند الله، فذلك مما لم يخطر على بال إلا القليل النادر، وأما آداب الدين وتهذيب الروح واستكمال الخصال الجليلة مما جعله الإسلام غاية العبادات وثمره الأعمال الصالحات فهو مما لا تتوجه إليه عزيمة ولا تنصرف نحوه إرادة اللهم إلا من أشخاص قلائل منثورين في أطراف الأرض لا ترقى بهم أمة ولا تسمو بهم كلمة.

أخطأ المسلم في فهم معنى "التوكل" و"القدر" فمال إلى الكسل وقعد عن العمل ووكّل الأمر إلى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها، ويظن أنه بذلك يرضى ربه ويوافي رغائب دينه.

* الحكام وارتباطهم بالشرعية:

أما الحكام -وقد كانوا أقدر الناس على انتشار الأمة مما سقطت فيه- فأصابهم من الجهل بما فرض عليهم من أداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الأعظم من العامة، ولم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الأبدان لأهوائهم وإذلال النفوس لخشونة سلطانهم وابتزاز الأموال لإنفاقها وإرضاء شهواتهم لا يراعون في ذلك عدلاً ولا يستشيرون كتاباً ولا يتبعون سنة، حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والافتداء بهم في الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التي ما فشت في أمة إلا حل بها العذاب.

هذا ما أصاب المسلمين في عقولهم وعزائمهم وأعمالهم بسبب ابتداعهم في دينهم وخطئهم في أصوله وجهلهم بأدنى أبوابه وفصوله.

الرجوع إلى الدين والاستمسك بالشرعية:

وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة به ما هو كذلك، وهو حاضر لديهم، كان العناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إمام لهم به. لم يخطر ببال أحد ممن يدعون إلى الرجعة إلى الدين أن يشير فتنة على الأوربيين.

إن هؤلاء الإفرنج يأخذون مطاعنهم في الإسلام عن سوء حال المسلمين مع جهلهم هم بحقيقة الإسلام. إن القرآن نظيف والإسلام نظيف وإنما لوثة المسلمون بإعراضهم عن كل ما في القرآن واشتغالهم بسفاسف الأمور.

القائمون على الشرعية الفقهاء ودورهم في جمود الشريعة وافتقادها حالة الرفع والرافعية:

إن المسلمين ضيعوا دينهم، واشتغلوا بالألفاظ وخدمتها وتركوا كل ما فيه من المحاسن والفضائل. ومن العجيب أن فقهاء المذاهب الأربعة قالوا: إن الصلاة بلا حضور ولا خشوع يحصل بها أداء الفرائض ويسقط الطلب، ما هذا الكلام؟! إنه الباطل ..

كل آية تذكر الصلاة تبطله.. قالوا: النية في الصلاة أن يقصد الإنسان هذه الصلاة دون غيرها، ولكن هؤلاء الفقهاء حرفوا كل نصوص الكتاب والسنة، المراد بالنية في الحديث، قصد المرء وغرضه من فعله، وهو إما وجه الله وابتغاء مرضاته (وهو النية الصحيحة) وإما غرض آخر كالرياء.

وقد جعل (الفقهاء) كتبهم هذه -على علاقتها- أساس الدين ولم يخلوا من قولهم: إنه يجب العمل بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة، فانصرفت الأذهان عن القرآن والحديث وانحصرت أنظارهم في كتب الفقهاء على ما فيها من الاختلاف في الآراء والركاكة.

ثم إن الناس تحدث لهم باختلاف الزمان أمور ووقائع لم ينص عليها في هذه الكتب، فهل

نوقف سير العالم لأجل كتبهم؟! هذا لا يستطيع، ولذلك اضطر العوام والحكام إلى ترك الأحكام الشرعية ولجأوا إلى غيرها.

وهذا الجمود جر إلى عسر حمل الناس على إهمال الشريعة. كانت الشريعة الإسلامية أيام كان الإسلام إسلامًا سمحة تسع العالم بأسره، وهي اليوم تضيق على أهلها حتى يضطروا إلى أن يتناولوا غيرها وأن يهتموا حماية حقوقهم فيما لا يرتقى إليها، وأصبح الأتقياء من حملتها يتخاصمون إلى سواها.

تعلم ما وصل إليه الناس من فساد الأخلاق والانحراف عن حدود الشريعة. لو سألت عن سببه في القرى وصغار المدن لوجدته أحد أمرين: إما فقد العارف بالشريعة والدين وسقوط القرية أو المدينة في جاهلية جهلاء، يرجع بعض أهلها إلى بعض في معرفة الحلال والحرام وليس المسئول بأعلم من السائل وكلهم جاهلون، وإما عجز العارف عن تفهيم من يسأله لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة.

وقد قال الفقهاء: لا بد من اتباع مذهب خاص في العقيدة وافترقوا فرقًا وتمزقوا شيعًا، ولم يكفهم الإلزام باتباع مذهب خاص في نفس المعتقد بل ذهب بعضهم إلى أن لا بد من الأخذ بدلائل خاصة للوصول إلى ذلك المعتقد، فيكون التقليد في الدال كالنقل في المدلول وكأنهم جعلوا النقل عمادًا لكل اعتقاد.

نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما أعوج منها، ووكلت إلى ناس منها لا علم لها بالدين ولا بالأدب، وقد غرسوا في أذهان الدهماء شر الغرس، ولا تجنى الأمم منه إلا أخبث الثمر. فلو قام العالم بالدين وأراد أن يبين حكم الله المصريح به في كتابه وسنة نبيه (ﷺ) المجمع عليه عند السلف قاطبة لانتصب له ناعر من العامة يصيح في وجهه: (ما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين)، ويريد من آبائه الأولين: من رآهم بعد ولادته أو ذكرت

له أسماؤهم بلسان مضليه، حتى صار إرشاد العامة اليوم من أصعب الأمور وأشكلها على طالبيه.

هذا هو شأن العامة يرون ما ليس بدين دينًا ويصعب على حفاظ الدين إرشادهم بفضل جمودهم على ما ورثوا من ملقنيهم بدون تعقل. فهذا معظم الأمة تراه قد تملص من أيدي منذريه ولو شاءوا لأقبل كل منهم على صحبه وهو أيسر شيء على حملة الشريعة، وما هو إلا أن يرجعوا إلى ما كان عليه (ع) وأصحابه من سعة الدين وسماحته ثم العمل على حفظه وحياته.

ج) القيم الحاكمة والفضائل الفاعلة:

ونتناولها في نقطتين:

ج/1- أثر القيم في حياة المسلمين :-

لقد اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتي سقطوا في مساقطهم، وطارحو الأوهام حتي انجروا إلى مطارحهم وباءوا بما كان لهم وما عليهم وقد حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل وحصدت العقائد. أما لو رجع المسلمون إلى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم إليه في تنزيله وعلى لسان نبيه و مهده لهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم واستجمعت لهم القوة ودبت فيهم روح الفتوة.

إن الإسلام إن طالبت به غيبة فله أوبة، وإن صدعته النوائب فله نوبة، وقد يقول فيه المنصفون من الإنكليز مثل "اسحاق طيلر" " إنه يمتد في أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره والشجاعة والإقدام من أنصاره"، إن العدل ورعاية الحقوق

واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هي التي تخفف على المغلوب سلطة الغالب وتدنو منه وتهون عين الرضا عنه.

من دلائل المدنية أن يعرف الرجل بالصفات الفاضلة وسعة المعلومات وبذل الجهد فيما يعود على البلاد بالخير والفائدة وهذا هو الذى يبعث كل فرد من أفراد الأمة على الجد وكسب الفضائل الحقيقية واستكمال العقل الإنساني فيما خلق لأجله من إصلاح أحوال المعيشة... إلخ. ومن الفضائل التي دونها العلماء والحكماء طلب النفع الخاص عن طريق الفائدة العامة والنفع لعموم نوع الإنسان وأن لا يجلب ضرراً على أحد المجتمعين لا في العاجل ولا في الآجل، إلا أن يتوقف عليه نفع جميعهم، ويتبع هذه الفضيلة الكلية عدة فضائل هي أصناف وأنواع، وكل واحدة منها هي أصل لفضائل لا تنحصر إلا بالذوق الطاهر والفكر الدقيق.

أما الوضعاء من الناس وذوى الانساب الحقيمة ومن لا اسم لهم فإنهم يعلمون أن هذه الصفات الفاضلة تسوق الى السعادة، وأن من لا قدر لهم ولا تعلم أسماؤهم يجدون ويجتهدون في إكتساب ما يؤهلهم ويعدهم للحاق بمن سبقهم من الاعمال النافعة والافصاف الفاضلة لينالوا من رفعة الشأن ما نال السابقون وبذلك تكون الأمة على اختلاف طبقاتها في حركة صعود دائماً. وهذا بخلاف ما يوجد في كثير من البلاد التي لا عناية لها بشأن الفضائل، فلا ينظر فيها إلى الشخص من حيث خلите الباطنة وزينته العقلية و لكن أهاليها ينظرون الى الرونق الظاهر والحلية الصورية.

ويلزم لذلك تمكن الاستبداد والظلم في نفوس الطبقات العليا وثبوت جرثومة العبودية والذل في قلوب الطبقات السفلى. والاستبداد يقال على معنيين:

الأول- تصرف الواحد في الكل على وجه الإطلاق فى الإرادة إن شاء وافق الشرع والقانون وإن شاء خالفهما، وهذا هو الاستبداد المطلق.

الثاني - استقلال الحاكم في تنفيذ القانون المرسوم والشرع المسنون بعد التحقق من موافقتها على قدر الإمكان وهذا بالحقيقة لا يسمى استبدادا إلا على ضرب التساهل وإنما يسمى في عرف السياسيين "توحيد السلطة المنفذة".

ومن الواجبات الإنسانية على كل شخص ان يحفظ حقوق غيره كحفظه لحقوق نفسه فلا يأتي عند من يساويه في السن والفضل بما يوهم تهاونا بشأنه، ولا يتكلم بما يشير إلى الازدراء بقدره، بل لابد أن يكون في أعماله وأقواله حافظا لناموس جيله المساوي له، فان كان اكبر منه سنا أو ارفع قدرا وجب عليه أن يؤدي تلك الواجبات بعينها كما على الجليس أن يعترف لمن يؤدي إليه تلك الحقوق حقه أيضا.

فهؤلاء الذين يوجبون على الناس ما يشاءون من أنواع التعظيم وإن كانت خارجة عن حدود القوانين المألوفة بين الأمم، ولا يوجبون على أنفسهم شيئا لأحد ممن دونهم، وجب على من دونهم أن لا يعاملوهم وأن يتجنبوهم حتى لا يؤذوا أنفسهم إما بالفعل أو بالقول.

إن حياه كل أمة تقوم باستعدادها لكل زمان بما يناسبه، ومن غالب الزمان غلبه الزمان.

ج/2- الحرية واختيار الإنسان

لسنا ننكر أن بلادنا كانت في الأزمان السابقة تحت تصرف أقوام خشنين، وقد وقفوا سدا منيعا حصينا بين كل شخص ومنافعه، فاستأثروا بجميع ثمرات الأعمال، فلا يعمل العامل وله أمل أن يجنى ثمرة عمله... وبالجمله لم يكن لأحد من الأهالي حركة اختيارية ناشئة عن فكره الخاص به في تحصيل منفعة أو درء مضرة بل كانت أعماله تبعة لإرادة سيده الحاكم.

وكان من جملة التقييدات العنيفة التي وضعها أولئك المتسلقون: الحجر على أهالي المدن وغيرها من الأعمال والأقوال الشخصية، وكانوا يقومون بما كان يعرف بالكبسة، وهو أن يهجم

رجال الضابطة على بعض الأماكن ليلا ليقبضوا على من يظن بهم الاجتماع على فسق، فإن وجدوا شيئاً من ذلك ساقوا من يجدونه حيث يستوفى عقاباً أليماً.

فتلك كانت حالة تعيسة يجب على عقلائنا أن ينتحلوا كل وسيلة لتخليص رقاب العباد منها، فرزق الله هذه البلاد بأناس خالطوا الأمم المتمدنة وطالعوا أحوالها ورأوا ما عليه أحوالها من إطلاق الإرادة وحرية الاختيار، فطلبوا لبلادنا أن تكون في أحوال أهاليها الشخصية على مثال سكان تلك البلاد المتمدنة. لكنهم أول ما بدأوا به أن أباحوا لكل شخص أن يعمل فيما يخص نفسه بإرادته، ويتكلم فيما هو مقصور على ذاته بمقتضى فكره، وشرطوا في ذلك أن تكون تلك الأعمال والأقوال غير متعلقة بارتباطاته مع حاكمه، وسموا تلك الإباحة حرية. ونادوا بها على الألسن الظالمة فكان حاصل تلك الحرية أنه لا جناح على من ارتكب أي جريمة، فقد قلدوا الأمم المتمدنة في الأحوال الجزئية الشخصية مع علمهم بأن البلاد غير معتادة على مثل هذه الحرية فيها.

فلذلك الذفعت الناس إلى انتهاب الشهوات، ووسعت إلى أوسع مدى لها، وكلما طلبت لذلك منعاً قال المولع هذه حرية. وأما نتاج حرية الفكر فكانت خاصة بالاعتقادات والمشارب الدينية فأخذ كثير من الناس يجهر بين العامة بألفاظ تناقض دينه الذي ولد فيه، فإن قيل له خفض صوتك قال إننا في زمان الحرية، رغم أن هذه الأفكار التي يتشرف بها ليست مبنية على قواعد أو مبادئ بل هي ألفاظ حفظها من معاشريه ورمى من يخاطبه بالجهل والخشونة.

فهذه الحرية البتراء لم تدع لها أثراً يحمد وإن كان الأورباويون يحرصون عليها، فإن استعداد بلادنا لم يكن ملائماً لمثل هذا الإطلاق الذي هو في الحقيقة عين الرق والاستعباد.

فالكبسة على ما كان فيها من الخطر على الأنفس والأموال وشناعة الصورة لو أحسن فيها القصد لكانت أولى وأفضل، إلى زمن تتقدم فيه التربية، فيكون لكل شخص زاجر من نفسه فترتفع الكبسة بذاتها.

فتلك الحرية التي سموها إطلاق فكر قد اعتقت صاحبها من قيد العقل وأسلمته إلى الجهل الأعمى.

حيث يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج في ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده، والإيمان بوحداية الله لا تحتاج إلا اعتقاد أن الله صرفه في قواه، فهو كاسب لإيمانه ولما كلفه الله به من بقيه الأعمال واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته، ولها وحدها السلطان الأعلى في إتمام مراد العبد بإزالة الموانع أو تهيئة الأسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت إرادته.

فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات، يشهد بالبداهة أنه في أعماله الاختيارية عقلية كانت أو جسمانية قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله، وقد عرف القوم شكر الله على نعمه فقالوا: هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله.

على هذا قامت الشرائع وبه استقامت التكاليف ومن أنكر شيئاً منه فقد أنكر مكان الإيمان من نفسه وهو عقله الذي شرفه الله بالخطاب في أوامره ونواهيه.

من مميزات الإنسان حتى يكون غير سائر الحيوانات أن يكون مفكراً مختاراً في عمله على مقتضى فكره. كما أن الأفعال الإنسانية الاختيارية لا تخرج من أن تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنا وما تتفعل به نفوسنا عند الإحساس بها أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ما تنفصل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا أو حضورها في مخيلتنا.

ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتباره ما يجلب من النفع وما يقبح بما يجز إليه من الضرر.

فالعقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته في هذه الحياة، اللهم إلا في قليل ممن لم يعرفهم الزمن وليست عقول الناس سواء في معرفة الله (تعالى) ولا في معرفة حياة بعد هذه الحياة. لهذا كان العقل الإنساني محتاجاً في قيادة القوى الإدراكية والبدنية إلى ما هو خير له في الحياتين، إلى معين يستعين به في تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه في رسائل السعادة في الدنيا والآخرة ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من حبسه يفهم منه أو عنه ما يقول.

ما يتعلق بسنة الله في كسب الخير والترقي من الشر والتمسك بأسباب ذلك فإن الله (سبحانه وتعالى) قد وهبنا من العقل ومن القوى ما يكفينا في توفير أسباب سعادتنا والبعد عن مساقط الشقاء.

القيم والأخلاق والمعرفة:

العدالة والعلم متلازمان في عالم الوجود وينبئنا التاريخ كيف تمتعت دول بالنورين وطارت إلى أوج السعادة بهذين الجناحين حتى إذا أتت حوادث الدهر على أحد الأساسين فهدمه فسقط الآخر بأسرع وقت وانحطت الدولة المصابة بفقره إلى أسفل الدركات.

وسر ذلك أن العلم إذا انتشر في قوم أضاء لهم السبل واتضحت المسالك وميزوا الخير من الشر والضار من النافع، فرسخ في عقولهم أن المساواة والعدالة هما العلة الأولى لدوام السعادة.

وإذا رسخت قدم العدالة في أمة تمهدت لها طرق الراحة وعرف كل ما له وما عليه، فتلهبت فيهم الأفكار وتلطف الإحساس وقويت قلوبهم على جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم

فيدركون لأول وهله أن لا دوام لما وصلوا إليه ولا ثبات لما تحصلوا عليه إلا إذا تأيد بينهم شأن المعارف الحقيقية وعمت التربية سائر أفرادهم فيقدمون بكليتهم على الأخذ بالأسباب المؤدية لانتشار العلوم وتعميقها في سائر الأنحاء.

المعرفة في المجتمع

البعض من الناس لا تميل نفوسهم إلى سماع نصيحة تنفعهم لو دعوها ينفرون من الأقوال المنبهة على بعض صفات ألفوها، الحاثثة على اعتناق فضيلة باعدوها. ولئن زعموا أن مصدر النصيحة دونهم في القدر أو لا يصل إليهم في الكمال حتى يليق لإرشادهم، فعلى فرض تسليمه لهم فإن ذلك لا يوجب نبذ أقواله ومعاداتها متى كان فيها نفع وصلاح، وليس بعار أن يسلم بالقول الحق والرأي الصواب. فالحق حق مهما كانت مصادره والصواب صواب أيًا كانت مظاهره، والفضيلة على حالها لا تتغير حقيقتها ولا تتبدل صفاتها باختلاف مصادر المنبهين عليها.

إنما العار لمن يهمل محاسن الأقوال ويقل شأن نفسه مؤثرًا بقاءها منغمسة في أحوال الرذائل على تحليلها بجميل الأخلاق وبدائع الصفات بل المتصف بذلك مختل الشعور. إذ العقل السليم والطبع المستقيم يوجبان على المتلبس بهما أن يسعى جهده إلى اجتلاب المحامد والتخلق بمحاسن الأخلاق أيًا كانت، لا فرق عنده بين أن يكتسبها من ناقص أو كامل.

الدين هدى وعقل من أحسن في استعماله والأخذ بما أرشد إليه نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه؛ ومن ثم فإن الدين الإسلامي لا روحياً مجرداً ولا جسدانياً جامداً بل إنسانياً وسطاً بين ذلك، أخذ من كل القبيلين بنصيب فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر بغيره ولذلك سمى نفسه دين الفطرة (كما سبق أن أشرنا).

د) الأمة الجامعة

إن امة لا تجمع ليست من الإسلام في شيء، ذلك أن جامعية الأمة هي أهم صفة لها ومناطق خيريتها ووسيطتها .

تعريف الأمة- هي الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضمهم ووحدة يكونون بها كالأعضاء في بنى الشخص. ومعنى الأمة يدخل فيه معنى الارتباط والوحدة التي تجعل أفرادها على اختلاف وظائفهم وأعمالهم حتى في إقامة هذه الفريقين (الدعوة للإسلام في غير بلاده أو الإقامة بعض الفرائض والشعائر أو إزالة بعض المنكرات من بلد آخر من بلاد المسلمين) عند تشعب الأعمال فيها كأنهم شخص واحد.

الأمة في القرآن: هناك العديد من الآيات التي جاءت فيها "الأمة" ولها عدة معان:

تطلق الأمة في كتاب الله بمعنى الملة أي العقائد وأصول الشريعة.

أو أن تكون بمعنى السنين (11: 8 ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة).

المقومات :

1- العلم التام بما يدعون إليه وأنه يجب العلم بالقرآن والعلم بالسنة وسيرة النبي (ص)

والخلفاء الراشدين وسلف الأمة الصالح وبالقدر الكافي من الأحكام.

2- العلم مجال الآخر (من توجه إليهم الدعوة) في شئونهم واستعدادهم وطبائع بلادهم

وأخلاقهم أو ما يسمى حديثاً بحالهم الاجتماعية.

3- مناشئ علم التاريخ ليعرف الفساد في العقائد والأخلاق والعادات فيبثون الدعوة على

أصل صحيح ويعرفون كيف تنهض الحجة ويبلغ الكلام غايته من التأثير وكيف يمكن

نقل هؤلاء المدعويين من حال إلى حال.

4- علم تقويم البلدان ليعد الدعاة لكل بلاد منها عدتها إذا أرادوا ظالسفر إليها وهذا ما يسمى تقويم البلدان وجغرافيتها.

5- علم النفس وهو العلم الباحث عن قوى النفس وتصرفها في علومها وتأثير علومها في أعمالها الإرادية.

6- علم الأخلاق وهو العلم الذي يبحث فيه عن الفضائل وكيفية زربية المرء عليها وعن الراذائل وطرق توقيه منها.

7- علم الاجتماع وهو العلم الذي يبحث فيه أحوال الأمم في بداوتها وحضارتها وأسباب صنفها وقوتها وتدليها وترقيها.

8- علم السياسة وهو العلم بحال دول العصر وما بينها من الحقوق والمعاهدات ومالها من طرق الاستعمار. فالأمة التي تؤلف للدعوة في بلاد غير المسلمين المستقلة لا يتسير لها ذلك إذا لم تكن عارفة بسياسة حكومة تلك البلاد.

9- العلم بلغات الأمم التي تراد دعوتها.

10- العلم بالفنون والعلوم المتداولة في الأمم التي توجه إليها الدعوة ولو بقدر ظما يفهم به الدعاة ما يرد على الدين من شبهات تلك العلوم والجواب ظعنها بما يليق بمعارف المخاطبين بالدعوة.

11- معرفة الملل والنحل ومذاهب الأمم ليتيسر للدعاة بيان ما فيها من الباطل.

الأركان:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المرتبة الأولى - إذا اجتمعت الأمة على تحقيق هذين الركن فهي تكون مهيمنة على الأمم كلها ومربية لها ومهذبة لنفوسها فلا شك أن جميع الأهواء الشخصية تتلاشى من بينهم. ولا يهتمون إلا بالتعاون والاجتماع.

المرتبة الثانية في الدعوة والأمر والنهي: دعوة المسلمين بعضهم بعضاً إلى الخير وتأميرهم فيما بينهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر والعموم فيها ظاهراً وله طريقان:

- أحدهما: الدعوة العامة الكلية ويقوم على هذا الطريق خواص الأمة العارفون بأسرار الأحكام (المقاصد الشرعية) وحكمة الدين وفقهه.

- الطريق الثاني - الدعوة الجزئية الخاصة وهي ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ويستوي فيه العالم والجاهل فإن أفراد الأمة إذا قام كل واحد منهم بنصيحه الآخر دعوة وأمرًا ونهيًا، اقتنع فشوّ الشر والمنكر فيهم واستقر أمر الخير والمعروف بينهم.

الأوصاف والأنواع للأمة -

الأمة (خيريه - وسط):

خيريه - الأمة وفضلها كما جاء في القرآن الكريم تكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله وقد عرف المطلقون على التاريخ أن الصحابة لم يفرضوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما وجدوا وإنما ضعف ذلك بعد انقراض أكثرهم وهذان الركنان هما بعد الإيمان أعظم أركان خيريه - الأمة. فالتفرق والخلاف لا يدوم في أمة تقيم هذين الركنين ولو بغير نظام.

كما أن هذه الأمة ما فتنّت خير أمة أخرجت للناس حتى تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما تركتهما رغبة عنهما أوتهاونا بأمر الله (تعالى) بإقامتهما، بل مكرهة باستبداد الملوك والأمراء من بني أميه ومن سار على طريقهم من بعدهم.

وسطية الأمة "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً" :

الوسط هو العدل والخيار وذلك أن الزيادة على المطلوب زفي الأمر إفراط والنقص عنه تفرط وتقصير وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة فهو شر ومذموم فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر أي المتوسط بينهما وقد اختار لفظ الوسط عن الخيار رغم أن الثاني هو المقصود أولاً- وجد الاختيار هو التمهيد للتعليل الآتي فإن الشاهد على الشيء ولا بد أن يكون عارفاً به، ومن ثم كان متوسطاً بين شيئين فإنه يرى أحدهما من جانب وثانيهما من الجانب الآخر أما من كان في أحد الطرفين فلا يعرف حقيقة حال الطرف الآخر ولا حال الوسط أيضاً. كي أن لفظ الوسط إشعار بالسلبية فكأنه وليس على نفسه أي أن المسلمين خيار وعدول لأنهم وسط، ليسوا من أرباب الغلو في الدين المفرطين ولا من أرباب التعطيل المفرطين فهم كذلك في العقائد والأخلاق والأعمال. والأمة الإسلامية قد جمع الله لها في دينها بين الحقين حق الروح وحق الجسد فهي روحانية جثمانية.

الأمة بين الخاصة والعامة

-أمة الخاصة: وهي المنتخبة من الأمة العامة يقتضي أن تكون للعامة رقابة سيطرة على الخاصة تحاسبها على تفريطها ولا تعيد انتخاب من يقصر في عمله لمثله. فالأمة العنصري المنتخبة (بفتح الخاء) تكون مسيطرة وعلى أفراد الأمة الكبرى المنتخبة (بكسر الخاء) وهذه تكون مسيطرة على الأمة العنصري وبهذا يكون المسلمون في تكافل وتضامن.

الأمة الدور والوظيفة:

كما أن دور الأمة ينصرف إلى أن لكل فرد من أفرادها إرادة وعمل في إيجادها وإسعادها ومراقبة سيرها بحسب الاستطاعة حتى إذا ضلوا منها خطأ أو انحراف أرجعوها إلى الصواب كما أن كل فرد من أفراد المسلمين مكلفاً بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعليهم أن يختاروا أمة منهم تقوم بهذا العمل ظلاً لجل أن تتقنه وتقدر على تنفيذه وإقامة هذه الأمة فرض عين يجب على كل مكلف أن يشترك فيه على الآخرين.

وهذه الأمة يدخل وفي عملها الأمور العامة التي هي من شأن الحكام وأمور العلم وطرق أفادته ونشره وتقرير الأحكام وأمور العامة الشخصية ويشترط فيها العلم بذلك ولذلك جعلت أمة. كما يناط بهذه الأمة، وهو أصل كل معروف: النظر في تعليم الجاهلين فإذا علمت أن في مكان ما طائفة من المسلمين جاهلين بما يجب اتخذت الوسائل للتعليم . كما أن التعليم والتربية من أعظم المصالح والأعمال التي تجدد الملة وتستعيد الكرامة. ومن أعمالها الأخذ على أيدي الظالمين فهي لا تخاف ولا تغلب.

الآثار

الفرد الأمة: وذلك يكون في المثال التالي: أن الأمة المؤلفه من مليون واحد إذا كانت تبذل من فضل ما لها في مصالحها العامة كإعداد القوة وتربية النبتة على ما يؤهلها لاستعمالها ويقرر الفضيله في أنفسها تكون أعز وأقوى من أمة مؤلفه من مئة مليون لا يبذلون شيئاً من فضول أموالهم في مثل ذلك: ذلك بأن الواحد من الأمة الأولى يعد بأتمته لأن أتمته عون له تعده جزءاً منها ويعدها كلاً له، والأمة الثانية كلها لا تعد بواحد لأن كل جزء من أجزائها (أي أفرادها) يخذل الآخر ويرى أن حياته بموته فليكون كل واحد منها في حكم الميت.

كما أن كل فرد من أفراد المسلمين مكلفاً بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن يختاروا أمة منهم تقوم بهذا العمل لأجل أن تثقفه وتقدر على تنفيذه. ولا بد للمرء في حفظ نفسه ومن معه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أن على كل فرد من جماعة (أمة) المؤمنين أن يكون له إرادة وعمل في إيجادها (الأمة) وإسعادها ومراقبة سيرها بحسب الاستطاعة حتى إذا رأوا منها خطأ أو انحرافاً أرجعوها إلى الصواب..

الحكومة

العلاقة بين الأمة والحكومة هي أن الأمة هي التي تقوم عوج الحكومة والمعروف أن الحكومة الإسلامية مبنية على أصل الشورى ومن ثم فعلى الناس بالمعروف والنهي عن المنكر وهو عام في الحكام والمحكومين ولا معروف أعرف من العدل ولا منكر أنكر من الظلم.

التماسك :

وهو يكون بأن القائمين بالأمر والنهي أمة يستلزم أن يكون لها رياسته تدبرها لأن أمر الجماعة بغير رئاسة يكون مختلفاً معتلاً فكل كون لا رئاسة فيه فاسد فالرأس هو مركز تدبير البدن وتعريف الأعضاء في أعمالها ولذلك يكون رئيس هذه الأمة مصدر النظام وتوزيع الأعمال على العاملين.

وأن تكون أمة تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر وأن ذلك يقيم الدين ويحفظه وبه تتحقق الوحدة المقصودة منه في حين أن التعرف والاختلاف يذهب بتلك الوحدة ويتقدم القيام بالدعوة الصالحة وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن ثم فالتماسك يجعل (يساعد) الأمة في القيام بدورها وبدونه تنتهي الأمة ويذهب ريحها.

ال عمران

يرى العلماء أن جميع الفنون والصناعات التي يحتاج إليها الناس في معاشهم من الفروض الدينية إذا أهملت الأمة شيئاً منها فلم يبق به من أفرادها من يكفيها أمر الحاجة إليه كانت كلها عاصيه لله (تعالى) مخالفة مدينة إلا من كان عاجزاً عن دفع ضرر الحاجة وعن الأمر به للقادر عليه وعلى ذلك يتوقف التوسع في العمران.

وقد يقال إذا كان التقطع لعلوم الدين لا يأمن على عقيدته أن تذهب ودينه أن يفسد إذا هو تفكر في مصالح الدنيا وعرف العلوم التي لا تقوم هذه المصالح بدونها فكيف يكون حال من يدرسون هذه العلوم الدينية من المسلمين وليسوا على شيء يعتد به من العلوم الدينية لاجراً أن هذا قضاء على الإسلام بأنه آفه العمران وعدو العلم والنظام وهو قضاء جائر يبطله القرآن وتنقضه سير-السلف الصالحين الذين سيقونا بالإيمان.

السياسة والأمة:

لقد أفسدت السياسة روابط الأمة فصار الأخ يطمح في مال أخيه ويحفر له من المهاوي ما لعله هو يقع فيه.

هـ) التمدن والحضارة والعمران (الحضارة الفاعلة):

الحضارة الإسلامية حضارة المدنية:

العقيدة الإسلامية هي العقيدة السامية أو المدنية الإسلامية، فهي قد ارتقت بأريابها وهم من أهل البداوة في قاصية الأرض رغم أنهم لم يتلمظوا (يتذوقوا بأطراف ألسنتهم) بشيء من نعيم الحَضَر، ولم يتذوقوا طعم العلم والصناعة، حتى بلغت بهم ما بلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان، ثم ما بلغوا به من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغًا مكنهم من التلطف بالأمم حتى وقفوا على ما كان خفيًا لديها، وكشفوا ما كان مستورًا عندها، واستخرجوا من كنوز معًا صرفها ما ظهر فضله على الأوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية.

التمدن ليس بالرسوم (الأشكال):

إذا ما نظرنا للغرب الآن وجدناه قد وصل إلى درجة من التمدن جعلته هو الضامن لتوطيد أركان العمران، وأنه قد جدَّ في طلبه من أدرك نتيجته من الأمم فأصبح يتقلب على بساط العز ويتدرج في معارج الإجلال والجمال، عمرت دياره وصارت محط رجال السياسات ومطمح أنظار النبلاء. وقد تسمَّع به أهل تلك الديار ولكن يغالطون الحسّ ويكابرون بأفكار البداوية ويسلّون أنفسهم بأن هذا الأجنبي لا سطوة له ولا حكم، إنما هو غريب دعت الحاجة للتجول في البلاد لطلب الرزق، ثم تحدثهم خواطرهم بأنهم أرفع منه شأنًا وأسبق منه بدءًا في المدنية، ولئن تأخرنا عنه حينًا من الزمن ولكن لحقنا به في انتظام الهيئة وحسن السلوك، وهذه قصورنا المشيدة وثيابنا

الملونة.... وأطعمتنا المتنوعة تشهد بأننا قوم غمسنا في الترف، وحظينا بالثروة، ونهجنا الصراط المستقيم.

يحسبون تلك الأوهام حقائق تجعلهم من ذوي النعمة واليسار والعزة والكمال، اعتمادًا على كونها من الأمم المثرية والشعوب المتنورة، ولكن بالنسبة لهؤلاء القوم فهي الفقر الدفع ومجلبة الشر، وإن هذه الصور الظاهرية التي يظنونها تمدنًا كسحابة حشيت بالصواعق يتوهم الغافل من بريقها ولمعانها أنها تأتي بوابل ينعش البقل ويحيى الموات، ولكن إذا حل الأجل أمطرت ما يذهب الحياة ويبدد الأجسام؛ ذلك لأن الأمم المتمدنة [السياق المقارن] وإن أنفقت الأموال الكثيرة في تشييد القصور وتزيين الملابس وتحسين الأثاث إلى غير ذلك من المصارف، فإنما يكون على نسبة مخصوصة من إيراداتهم، الحائزين لها بالكد والتعب في إبراز المصنوعات الجميلة والمخترعات الجمّة التي تكسب صاحبها في قليل من الزمن ثروة واسعة وقدرًا رفيعًا ولا يجيزون الإنفاق من رأس المال إلا إذا مست ضرورة لا محيص عنها، ومع ذلك فنفقاتهم هذه لا تتجاوز حد اللازم ولا تخرج عن دائرة احتياجاتهم، فكلها مؤسسة على قاعدة "جلب المصلحة ورفع الحاجة". هكذا حال الحضارة الغربية، أما التدهور في حال المسلمين فهم يزعمون أنهم قوم متمدنون، وهم في ذلك مخطئون، فقد ركبوا الشطط وحملوا أنفسهم ما لا يطيقون من النفقات الباهظة، يصرف الواحد منهم آلافًا من النقود في سبيل تعمير أرض فسيحة وربما كفاه ما لا يبلغ العشر من مساحتها، ويفرشها من أغلى أنواع الفرش، ويزينها بأبهج أصناف الزينة، فتبقى غرف المنزل بلا مساكن، بالإضافة للكثير من النفقات التي لا يوجد لها مصارف سليمة أو عاقلة، وقد حمله عليها العيش والانهماك في الشهوات والسفه المفرط الذي بلغ مرتبة الجنون.

بئر معطلة وقصر مشيد:

وإذا رجعنا إلى سيرهم في طرق جلب المنافع وتخفيف أتعاب المعيشة وتحسين وسائل الاكتساب رأيناهم واقفين على نقطة واحدة من آلاف السنين، فإيراداتهم الآن واقفة عند الحد الذي كانت عليه قبل أن كانوا يسكنون المنازل المصنوعة من اللبن الأخضر، المفروشة بقصب الحلفاء... مكتفين من الثياب ما يستر البشرة، ومن الطعام بما يذهب النّهمة، فمزروعاتهم الآن هي على ما كانت عليه في تلك الأيام لم تتغير أشكالها ولم تتبدل أصنافها، وإن كانت قد نمت ولكن هذا النمو لا يعادل في الحقيقة الضّعف الذي يلم بتجارة أبناء البلاد، فقد كان يوجد قبل ورود الغريب إليهم في القرية الصغيرة أشخاص عديدون يتجرون في جميع أصناف المزروعات وغيرها من الأقمشة والمأكولات، ويريحون من ذلك أجراً عظيماً، أما بعد ذلك فلا ترى بينهم إلا من يتضورون جوعاً، ويئنون تحت أحمال المشقات؛ لبوار التجارة وكسادها واختصاصها بيد النزيل (الغريب).

عقلية الانتظار وثقافة الانتظار لا تبني حضارة، ولا تقيم تمدناً، ولا تؤسس عمراناً. فكما ذكرنا آنفاً فإن الاعتماد على النزيل يؤدي إلى انهيار الصناعات المستفسخة من التمدن، بل وقد تؤدي إلى القضاء على الزراعة لوجود من يحسنها أكثر، وقد نجد هؤلاء السفهة واقعين في وهدة الفاقة والاضمحلال يئنون تحت أثقال الديون التي تستغرق جميع ما في حوزتهم من الأملاك.

وهذا ما يجعلهم حقراء أذلاء في قبضة الدائن الذي يكونون رهنوه أملاكهم يتصرف فيهم بما يريد فيلاقون منه شراً لا تقدر على تحمله النفوس ولا تستطيعه الطباع، وربما كان الدائن من سفلة قومه والمدين من أعيان بلاده، ولا تغني عنه يؤمئذ قصوره العالية ولا ثيابه المزركشة، فهو يقدر محصولات زراعته قبل بذرها وينسبها لمقدار المطلوب إبان الحصاد، فإذا وجدها على قدرها حصل له نوع من الاطمئنان، أما إذا حدث لها نوع من الفرق أو الشّرق أو الأندية المتساقطة من

السماء حتى إذا حل الأجل لم يجد لَدَيْنِهِ ما يفي بالمطلوب؛ لإصابة الزرع بأحد الأسباب السابقة، ضرب كَفًّا على كَفِّ، واسودَّ وجهه، وساءت حالته، وتسول الناس ليكفلوه عند عميله إذا لم يَفِ ما عنده بالرهن، فلا يجد مجيبًا ولا نصيرًا.

ال عمران الأصيل والتمدن الزائف:

لعمر الحق، إن المفترش للحصى، المتوسّد لحَجَر الصخر، المستكنّ في منازل الحيوانات، المتكلف في معيشته، خير من هؤلاء الناس الذين لا يقرّ لهم قرار، ولا يهدأ لهم بال، ومما يسوّونا أن نراهم أكثر من الكثير في بلادنا، أهذا ما حسبه تمدّنًا وزعموه نعيمًا مقيمًا؟ بل إنه هو الشقاء الأبدي الجالب للفقر المدقع والعذاب الأليم.

التمدن ليس في النقل عن الغرب:

وقد تولى أمر هذه البلاد (المصرية) أناس في أزمنة مختلفة، تظاهر كل منهم بأنه يريد تقدمها ونقلها من حالة الهمجية -كما يزعم- إلى حالة التمدن التي عليها أبناء الأمم المتقدمة، وجعلوا الوسيلة إلى ذلك أن تنقل عادات أولئك الأمم المتمدنين وأفكارهم وأطوارهم إلى هذه البلاد، وظنوا أن تقليدنا معاداتهم، وأخذنا الآن بأفكارهم اليومية، وتشبُّهنا بهم في الأطوار كافٍ أن نكون مثْلهم. لم ينظروا إلى الأسباب والوسائل التي توصّل بها أولئك الأمم إلى هذه الحال التي هم عليها حتى يعتدوا مثلها أو قريبًا منها لترقي هذه البلاد، بل ظنوا أن هذه الغاية من الممكن أن تكون بداية مع أن ما نرى عليه جيراننا من الممالك الغربية لم يصلوا إلا بعد معاناة أتعاب ومقاساة مشاقّ وسفك دماء شريفة.

"أسباب تقدم الغرب":-

إن بداية التقدم الأوروبي في الحقيقة كان في نفوس الأهالي وأفراد الرعايا، علمتهم الحروب الصليبية سيرَ البرِّ والبحر، وخالطوا فيها الأمم الشرقية أجيالاً، وطمعت أنظارهم لمتابعتهم، فدققوا في سبب قوة الشرقيين التي كانت لهم إذ ذاك، وبحثوا في أحوالهم فرأوا لهم عادات جميلة، وفيما بينهم أفكار سامية، ورأوا في دوائر أعمالهم اتساعاً، وأيدي الصناعة والاكتساب مطلقة الحرية؛ فأخذ أهالي أوروبا عند ذلك تقليدهم، ولكن لا في البهارج والزخارف، ولكن في أسبابها والموصلات إليها؛ وهي توسيع نطاق الصناعة والتجارة ونحوهما من وجوه الكسب، فكان ذلك أساساً للعمل وقر في النفوس وثبت في العقول وبنوا عليه ما شاءوا. كما يمكن لنا إرجاع أسباب التقدم الغربي لسبب واحد؛ هو إحساس نفوس الأهالي بآلام صعبة الاحتمال من ظلم الأشراف (النبلاء)، وغدر الملوك، وضيق وجوه الاكتساب، ونفرة دينية على المسلمين الذين استولوا على حرمهم المقدس، وقد طلبوا لذلك أسباباً متنوعة أقواها التعاضد والتفاوت والتعاون على ترويح وسائل الكسب وافتتاح أبواب الرزق، فكانت تعقد لذلك المحالفات والمعاهدات، وتتألف له الجمعيات، فكان جرثومة تقدمهم أمراً منبئاً في غالب الأفراد ومحرراً في أغلب العقول؛ وهو نشاط الأهالي في اجتلاب الثروة وطلبهم لحرية العمل لينالوها، ورفضهم لتلك التقييدات التي كانت تمنعهم من طلب حقوقهم الطبيعية، ثم تدرجوا فيه ينتقلون من حال إلى حال، والأصل ثابت لا يتغير حتى عم التغير جميع الفوائد والمشارب والقوانين، ولم يكن ذلك كله إلا من حرص الأهالي أنفسهم على الخروج من الآلام التي كانوا يشعرون بها في كل لحظة من حياتهم، ويتوارث هذا الشعور وذلك الحرص أبناؤهم بعدهم.

* التمدن عند العرب (المصريين):

أما عقلاؤنا فقد وجهوا نظرهم إلى حالة التمدن الحاضرة والأهالي على غير علم منها بأنفسهم، فاستلفتهم العقلاء إليها ولكن لتحريك غيرتهم على العمل اختياراً لا بتسهيل الطرق لهم ولا بالاهتمام بالبحث عن لأسباب، ولكن جلبوا إليهم كثيراً من أبناء تلك البلاد تظهر عليهم الرفاهية وترى عليهم آثار النعمة يتكلمون بما لا يفهم ويتفكرون فيما لا يعقل فشادوا بيننا أبنية وزينوها بما لم نكن نعهده من أنواع الزينة، وجلبوا إلينا من مصنوعاتهم ما راق منظره وطاب مخبره، لكننا لم نشهد مصنعه ولم نر منبعه. .. فأعجبنا حالهم هذا. ثم قال لنا العقلاء: كونوا مثلهم والحقوا بهم في هذه السعادة، ثم صاروا أئمة لنا في العمل؛ فأخذنا نتشبه بهم ولكن فيما رأيناه؛ وهو الزينة والبهجة غير باحثين عن كون ذلك هو الذي يلحقنا بهم في الحقيقة أم لا. ومن ذلك ترى أفكار الغالب منا دائماً -عندما يجد فرصة الاقتدار- موجهة إلى تشييد الأبنية، وتجويد وضعها، وإتقان ترتيبها، وتزيين بواطنها وظواهرها، والتوسع في لوازم المآكل والمشارب وآلاتها وأوانيها.... إلخ.

وبالجملة فقد سلكننا مسالك المتمدينين في ثمرات تمدنهم التي جعلوها من زوائدهم، فأسرفنا في الانفاق وصار الناظر بملابسنا ومسكننا، والذائق لمطاعمنا ومشاربنا يشهد بأننا في ذلك -بحمد الله- متمدون، فقد اشتركنا معهم في ثمرات التمدن؛ أي ما ينتهي إليه حال التمدن من طلبه للتمتع بالذائد وركونه لترويح النفس وتخفيف أتعابها.

ولكن في حقيقة الأمر فإن إفراطنا في تقليد الأوروبيين ومجاراتهم في عاداتهم التي نطنها تفوق عاداتنا البسيطة فعل في نفوس غالب الأغنياء منّا فعلاً غريباً، صرف نظرهم إلى اللذائد واستكمال لوازم الترف والنعيم، وأحدث في نفوسهم غفلة عما يحفظ ذلك عليهم بل يوجب ازدياده لديهم؛ وهو الوصول إلى الطريق المستقيم الموصل إلى اكتساب المجد الحقيقي والشرف الذاتي،

الذي يتبعه الغنى والثروة والراحة المستتعبة للذة الحقيقية، والنعيم الباقي في الحياة وبعدها. ومن هذه الجهة -جهة الغفلة عن روح الثروة وحمايتها وهو التمدن الحقيقي أعني الإحساس بوجوه اللذائذ والآلام والتشيط في طلب وجوه الكسب المتنوعة وطلب الأمانة على تلك الوجوه ومراعاة الحقوق والواجبات الطبيعية والشرعية- فارقوا الأمم المتمدنة، فصح أن يطلق عليهم أنهم في غاية التمدن مع أنهم إما في بدايته وإما قبلها بكثير، وحُقَّ لهم ذلك فإنهم رأوا أبواب اللذات مفتوحة قبل أن يجدوا عقلاً يقدر لهم ما يلزم منها وما لا يلتزم.

التمدن والحضارة (طرح محمد عبده للتمدن والحضارة)

كل هذا نشأ من جلب تلك الفوائد الترفيهية إلى بلادنا وطلب التحلي بها بدون أن نحوز ما يوصلنا إليها من أنفسنا، وليتنا قبل أن نشيد بيوتنا بالارتفاع الشاهق والترتيب المحكم ونزينها بأنواع النقوش والفرش والأثاث، أبقيناها على بساطتها وشيدنا في عقولنا الهمم الرفيعة والحمية التي لا تمتد إليها الأيدي، وأحكمنا طرق سيرنا في حفظ حقوقنا، ورتبنا في مداركنا جميع الوسائل والمعدات التي تحفظ علينا ما وجدنا وتجذب إلينا ما فقدنا، وزينا نفوسنا بالفضائل الإنسانية والشرعية من رحمة بالضعفاء ورفق بالملهوفين وغيرة على البلاد وأنفة عن الصغار.

لعمري لو قدمنا هذه الزينة الجوهرية على ذلك الرونق الصوري لكان العالم بأسره ينظر إلينا نظر الراهب الخائف أو يرمقنا بلحظ المعظم المبجل، وكانت معيشتنا البسيطة أرفع في نفسه من معيسته الرفيعة، وكان ذلك سهلاً لو أن الزاعمين فينا حبَّ الترقى والتقدم ساروا بنا من البدايات وحجبونا عن النهايات، حتى لا نراها إلا من أنفسنا فنطلبها، لا لأنها أعجبت النظر ولكن لأنها بنتُ الفكر ونتيجته، وكانوا يعلموننا محاذاة المتمدنين في أصول أعمالهم لا في زوائدها، فكنا نصل إلى ما وصلوا إليه في زمن أقل بكثير من الزمن الذي قالوا فيه ما قالوا، لكن فات الوقت، ونحن الآن فيه فعلينا بالعمل غير مقتصرين على مجرد الأمل.

و) السنن الحاكمة للقاضية

نستطيع القول أن تفسير الشيخ الإمام للقرآن حقيق به أن يُسمى بالتفسير السنني والتربوي، الذي يعكس منظومة مفاهيمية ومعرفية وسلوكية وقيمية قادرة على أن تزكي وعي الإنسان وفعاليته. وفي هذا السياق لم يترك الإمام فرصة للتأكيد على السنن أو الإشارة إلى فعلها أو التنبيه على الاستمساك بها إلا وأفاض وأشار إلى أنواع من سنن أو طاقات من فاعلية تتولد عنها وتترتب على وعي وسعي بها ولها. حتى إنه أفرد عنوان "السنن الاجتماعية في القرآن والأمم - الاستقلال"، وراح يعدد السنن وينوعها في إطار جامع ينظم فيما بينها ليؤكد على منظومة سننية متكاملة.

السنة الأولى:

أن الأمم إذا اعتدي على استقلالها، وأوقع الأعداء بها فهضمو حقوقها تنتبه مشاعرها لدفع الضيم، وتكر في سبيله فتعلم أنها "الوحدة" التي يمثلها الزعيم العادل، والقائد الباسل، فتوجه إلى طلبه حتى تجده. فهذه سنة النهوض والدفع لمواجهة العدو ورفع الضيم وتوسل أهم أدوات ذلك؛ من الدفاع من خلال الوحدة وتفقد الزعيم العادل وطلبه ليحرك الجمع ويجمع الجماعة، ويحقق الوعي في المجموع فيجعله تماسكاً ووحدةً وفاعلية في المواجهة والممانعة وطلب الاستقلال ودفع العدوان.

السنة الثانية:

ويكمل السنة السابقة أخرى تتعلق بشعور الأمة بوجوب حفظ حقوقها وصيانة استقلالها إنما يكون على حقيقته وكماله في خواصها، فمتى كثر هؤلاء الخواص في أمة فإنهم هم الذين يطلبون الرئيس الذي يملك عليهم. وهي سنة تحرك إقامة فروض الكفايات في الأمة وعناصر تكافلها في فروضها التضامنية؛ وذلك بانتداب خاصة الأمة وخواصها والتي تفرز القائد والرئيس،

ذلك لأن مجموع الأمة -كما سبق- مفتقر إلى صفوة، ومفتقد إلى قائد، وإقامة هؤلاء من أصول التماسك والدفع.

السنة الثالثة:

وتتكامل عناصر المنظومة السُّننية في استقلال الأمة وتماسكها، بحاله استطراق الوعي بالاستقلال: "فمتى عظم الشعور في نفوس خواص الأمة بوجوب حفظ استقلالها ودفع ضيم الأعداء عنها فإنه لا يلبث أن يسري إلى عامتها، فيظن الناقص أن عنده من النصر والحمية للأمة ما عند الكامل. حتى إذا خرجت من طور الفكر والشعور إلى طور العمل والظهور، انكشف عجز الأعداء المدّعين ولم ينفع إلا صدق الصادقين.

هكذا تتكون حاجات الأمم وتحقيقها لمقاصدها من خلال وعي يؤسس، وسعي يُفعل، تسري روح الاستقلال سرياناً من حاجات الأمم ومن خواصّها إلى قادتها، ومن خواصّها لعموم الأمة وعامتها. وهو إذ يشير إلى موجبات السنن فإنه كذلك يشير إلى منظومة أخرى؛ منظومة تؤسس الوعي بمعوقات تفعيل تلك السنن وآثارها. فهذه سنة من: "أن من شأن الأمم الاختلاف في اختيار الرئيس الذي يكون له الملك عليها، والاختلاف مدعاة للتفرق فيجب أن يكون هناك مرجع يقبله الجمهور من الأمة. وقد جعل الإسلام المرجع لاختيار إمام المسلمين مبايعة أولي الأمر لمن يختارونه من أنفسهم؛ وهم أهل الحل والعقد والمكانة في الأمة الذين هم عون السلطان وقوته؛ باحترام الأمة لهم وثقتها بهم؛ ولذلك لم ينصب الرسول (ص) إماماً للمسلمين في أمر الزعامة والحكم.

الاختلاف -وإن كان سنة كونية إلهية ماضية وقائمة- فعلينا أن نتدبر معنى الخلاف المذموم المفضي لتفرق وتنازع وفشل ولذهاب الريح والأثر، واختلاف التكامل والتنوع الذي يفضي

إلى الائتلاف في الكلمة والاتفاق على شأن الزعامة بوسائل الاختيار المرعية؛ من شورى وبيعة، وبالاعتبار الذي يؤكد فقهاء الأحكام السلطانية بأن الإمامة عقد مرضاة واختيار.

ومن هنا فإن من المعوقات كذلك البحث في الآليات التي يتوسلها الناس لتأسيس مصالحهم وبلوغ مقاصدهم، ذلك "أن الناس لا يتفقون على التقليد أو الاتباع فيما يرونه مضاداً لمصلحتهم الاجتماعية.

ومن عجيب أمر الناس أن كلاً منهم يحسب أنه يعرف الصواب في السياسة ونظام الاجتماع في الأمم والدول. ومن فروع هذه القاعدة أن عامة المسلمين لهذا العهد يرون أن الدعوة إلى جعل الخلافة موافقة للقواعد الشرعية التي يفتقدونها مخالفة لمصلحتهم، وكثير منهم يعد الداعي إلى ذلك عدواً لهم بل للإسلام نفسه.

ومن هنا كانت معرفة الصواب في السياسة ونظام الاجتماع في الأمم والدول باباً حرياً أن يُجتهد فيه وتشذ فيه العقول والفهوم، وتقلب فيه البدائل والخيارات والإمكانات والقدرات، فتصوب الآلية وتقل السنن فعلها وتتحقق موجباتها، ويتأصل مكافئ مقتضياتها وعياً وسعياً.

ومن كمال الوعي بالسنن ومنظومة معوقات فاعليتها التعرف على (وَهْمُ السُّنَنِ) وعملية تزييفها في الإدراك والوعي، أو انحرافها في السعي. إن الأمم في طور الجهل ترى أن أحق الناس بالملك والزعامة أصحاب الثروة الواسعة وأصحاب الأنساب الشريفة، فهذا الاعتقاد من السنن العامة في الأمم الجاهلة خاصة، فإنها هي التي تخضع لأصحاب العظمة الوهمية وهي ليست صفة لنفس صاحبها كالمال والانتساب إلى بعض العظماء في عُرْفهم.

ونقول بالإجمال إن الانتساب إلى أهل الشرف الحقيقي وهم أصحاب المعارف الصحيحة والأخلاق الفاضلة والنفوس الكريمة العزيزة له أثر في النفس عظيم.

وإنك لتجد الأمم الراقية في العلم والاجتماع تختار ملوكها من سلالة الملوك والأمراء وتحافظ على قوانين الوراثة في ذلك، وما ارتقى عن هذا إلا أصحاب الحكومة الجمهورية. وقد جاء حكم الإسلام في هذه المسألة وسطاً، فلم يغفل أمر النسب بالمرّة لئلا تتسع دائرة الخلاف بطمع كل قبيلة في الأمانة الكبرى، ولم يجعل الأمر في بيتٍ معين لما في ذلك من الغوائل، بل جعله في قبيلة عظيمة كثيرة لا تخلو ممن هو أهل للإمامة.

ومن هنا كانت أصول الاختيار تتمثل في شروط إعمال السنن، وما يتعلق ذلك بإعمال منظومة السنن عامة، والسنن الخاصة بمجال بعينه: "إن الشروط التي تُعتبر في اختيار الرجل في الملك هي في الآية من قوله (تعالى): { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ } سورة البقرة: الآية 247، ومن جميل ما نظر إليه الشيخ الإمام تفسيره لهذه الآيات التي تحقق أصول الاصطفاء والاختيار.

السنة الرابعة:

مشيئة الله (تعالى) إنما تنفذ بمقتضى سننه العامة في تسيير أحوال الأمم بتغييرهم ما في أنفسهم، وفي سلب ملك الظالمين وإيراث الأرض للصالحين. كما أن انتزاع ممالك المسلمين ليس مخالفاً لعدل الله العام وسننه الحكيمة التي جاء بها القرآن، إن الله (تعالى) لم يفرض والذي فرط هم المسلمون أنفسهم فذاقوا جزاءً تفريطهم، فإن تابوا وأصلحوا تاب الله عليهم وإلا فقد مضت سنة الأولين.

السنة الخامسة:

إن طاعة الجنود للقائد في كل ما يأمر به وينهى عنه شرط في الظفر واستقامة الأمر. وقوانين الجندية في هذا الزمان مبنية على طاعة الجيش لقواده في المنشط والمكروه والمعقول... وهي أمور تتعلق بأركان الأمة وفاعلية قوتها ومناط استقلالها ومنعتها؛ سواء تعلق ذلك بالجانب المادي في القوة الذي يجب ألا يهمل أو يغفل، أو يُفَرِّط في تحصيل وسائله أو مقاصده، وكذلك يتكامل مع هذا الجانب المادي الجانب المعنوي والقيمي الفاعل في أنساق السنن، من شروط قيمة تقيم للجوانب المادية كيانها وتحفظ عليها فاعلياتها: "إن الفئة القليلة قد تغلب بالصبر والثبات وطاعة القواد الفئة الكثيرة التي أعوزها الصبر والاتحاد مع طاعة القواد، لأن نصر الله مع الصابرين؛ أي جرت سنته بأن يكون النصر أثراً للثبات والصبر، وأن أهل الجزع والجبن هم أعوان لعدوهم على أنفسهم، وهذا مُشَاهَد في كل زمن.

ورغم أن الشيخ الإمام قد استخدم بعض المفاتيح من "نظرية التطور" وجعلها سنناً، فإن الإمام حرك الأفهام نحو مسارٍ معين يجعل من تتنازع البقاء ليس إلا "تدافعاً" وإعمالاً لسنة الدفع وموجباتها الكلية: "دفع الله الناس بعضهم ببعض من السنن العامة وهو ما يعبر عنه علماء الحكمة في هذا العصر بتنازع البقاء، ويقولون إن الحرب طبيعية في البشر لأنها من فروع سنة تتنازع البقاء العامة".

وما كان من "بقاء الأمثل" إلا إعمالاً لسنن "التداول والتمكين" لتحريك أصول السنن بشروطها: "بقاء الأمثل حيث إن ما فطر الله عليه الناس من مدافعة بعضهم بعضاً عن الحق والمصلحة هو المانع من فساد الأرض؛ أي هو سبب بقاء الحق وبقاء الصلاح.

وبين الإفساد والإصلاح، والبحث في الصلحة بالاعتبار الذي يؤكد على منظومة "الصلاح" كمرجعية، و"الإصلاح" كعلمية، و"المصلحة" كمقصد في مواجهة "الفساد والإفساد

والمفسدة" أو "المضرة"، إن هذا التفكير المنظومي السنني كان حربًا بالأستاذ الإمام، الذي اهتم مبكرًا بهذه المبحث الذي أهمل من قبله ومن بعده، على أهميته وخطورته وكأنه أراد أن ينبهنا إلى ضرورات تأسيس "علم السنن" وضمن هذا السياق جعل السنن الشرطية، القاضية جزءًا أصيلاً من بنیان رؤية للعالم، ومقومًا من أهم المقومات البنائية في سنن الفطرة المعتدلة.

"فمن حكمة الله أن نكون مشريعته جامعة لمصالح عبده جارية على سنن الفطرة المعتدلة التي فطرهم عليها"، وأكمل سياقات الفطرة ببنیان الشريعة وهندسة الأفعال المترتبة على الإيمان بها، ووصل الشريعة بحبل من الله وحيل من الناس في سياقات واقعية تؤكد على الضرورات، كما تؤكد على مقتضيات سنن "فقه الواقع وانتظام الأحوال" و"تأسيس الوسائل ومقدمات الواجب" و"إقامة الأمة وأصول عمرانها"؛ فجعل من السنن سنة "الضرورة".

وبحكم الضرورة قد يكون القسم من الأمة الذي لا يبالي بدينه ولا يهتم به في شكّه أو يقينه، والذي يتعلم ما يشاء ولا يبالي أصحت عقيدته أم فسدت، قد يكون هذا القسم أفضل من القسم الذي يصاب عقله عن فكر ويحاط بجميع الوسائل التي تمنعه من النظر فيما عليه الناس من خير وشر وما يعرض في الكون من نفع وضرر، كيلا يُفسد النظرُ عقيدته ويضل الفكرُ السليم بصيرته، وهذا القسم هو الذي تفوض إليه الرياسة الدينية ويعهد إليه بقيادة الأمة في صلاح الأعمال وانتظام الأحوال، وأعظم قسم في الأمة هو القسم الأول بحكم الضرورة.

من هنا كانت السنن ضمن منظومة شرطية تحرك الأسباب والمسببات غير منافية لمنظومة لإيمان ومقتضياتها بل هي في القلب فيها من منظومة الحكمة الإلهية والعدل الإلهي.

* أيتاؤه الملك لمن يشاء سنة من سنن الله، فليس معنى إسناد الشيء إلى مشيئة الله (تعالى) هو أن الله يفعله، بلا سبب ولا جريان على سنة من سنته في نظام خلقه، ليس كذلك، فإن كل شيء بمشيئة الله؛ أي بنظام وتقدير موافق للحكمة ليس فيه جُزَاف ولا خلل؛ فإيتاؤه الملك

لمن يشاء بمقتضى سنته إنما يكون بجعله مستعدًا لملك في نفسه وبتوفيق الأسباب لسعيه في ذلك.

وظلت ساحة السنن قائمة يفتقر إليها الإنسان المسلم، يطلبها افتقارًا لا استظهارًا يحرك كل ما ينفع الخلق والناس، يتدربون عليه، ويرون على قاعدة منه، فجعل من حركة الشورى ملازمة لحركة العمران وتحدياته ومستلزماته، فكانت "سنة المشاورة":

"من السهل أن يشاور الإنسان وله أن يشير وإذا كان المستشارون كثيرًا كثر النزاع وتشعب الرأي؛ ولهذه الصعوبة أمر الله بنبيه أن يقرر "سنة المشاورة" في هذه الأمة بالعمل، فكان (ص) يستشير أصحابه بغاية اللطف، ويصغى إلى كل قول، ويرجع عن رأيه إلى رأيهم.

وقد أقام الرسول (ع) هذا الركن (الشورى) في زمنه بحسب مقتضى الحال؛ من حيث قلة المسلمين واجتماعهم معه في مسجد واحد في زمن وجوب الهجرة التي انتهت بفتح مكة، فكان يستشير السواد الأعظم منهم، ويخص أهل الرأي والمكان من الراسخين بالأمر التي يضر إفشاؤها.

كما أن النبي (ع) لم يضع قاعدة للشورى، وإن كان قد وضع الشورى نفسها؛ وذلك لإدراكه اختلاف أحوال الأمة في الزمان والمكان، وأنها لن تظل هكذا، كما أنه -عليه الصلاة والسلام- لو وضع قواعد مؤقتة للشورى بحسب حاجة ذلك الزمان لاتخذها المسلمون دينًا وحاولوا العمل بها في كل زمان ومكان ما هي من أمور الدين.

وقد ارتبطت المشاورة بالعزم والتوكل، وأنه إذا ما أخذت المشاورة حقها وجب إمضاء العزيمة؛ لأن نقض العزيمة ضعف في النفس، وزلزال في الأخلاق، لا يوثق بمن اعتاده في قول ولا عمل. فإذا كان ناقض العزيمة رئيس حكومة أو قائد جيش كان ظهور نقض العزيمة منه ناقضًا للثقة بحكومته وبجيئته، ولا سيما إذا كانت بعد الشروع في العمل.

ز) المقاصد والمصالح:

المقاصد العامة الكلية: إنها المقاصد الحافظة والحاضنة للفعل الحضاري القاصد إلى المصالح، مقتضية "قواعد الأحكام في مصالح الأنام". وقد عبّر عن المقاصد في أكثر الكلام المنسوب للشيخ **بالمصالح العامة**، وقد حملت مدلولين غاليين:

*المصالح العامة: بمعنى الحكم والمنافع التي راعتها الشريعة واعتبرتها، ومن باب الأصول الواجب توخيها والمتوزعة على سائر الإنسان: بينه وبين ربه وبينه وبين نفسه وعقله وكرامته (عرضه ونسله) وماله.

* والمصالح العامة بمعنى الهيئات والمؤسسات الراعية والمراعية لهذه العلة والحكم؛ من الجمعيات الخيرية التي تحفظ على الناس أموالهم وكفائاتهم، والدول والولايات التي تحفظ النفوس والكرامات وترفع المصائب عن الأمة، وهيئات الدعوة والتعليم والتربية التي مقامها حفظ الدين والعقل من سائر مفسداتهما على الناس.

ومن هنا يأتي تعلق مقاصد المصالح العامة التي اقتضتها الشريعة وارتباط ذلك بالوسائل والآليات.

وقد اعتبر الشيخ أن الإنفاق إنما يكون في سبيل الله عندما يزيل به المرء ضرورة إخوانه المساكين والضعفاء، ويرفع به من شأن أمته بما يجعله للمصالح العامة وأعمال الخير؛ وأعظم المصالح والأعمال -في هذا العصر- هو التعليم والتربية.

ومن ثم قد يُستفاد من هذا الإنفاق في مصالح الدارين الدنيا والآخرة؛ فالدنيا مزرعة الآخرة. فلا يكون الإنفاق حفظاً للمال إلا من خلال مقصده وغايته في عمران العلاقات بين الناس وعمران مصالح معاشهم ومعادهم.

فالإسلام هاد ومرشد إلى توسيع دائرة الفكرة، واستعمال العقل في مصالح الدارين وكل ما أمرنا الله (تعالى) به وهدانا إليه، هو من أمور ديننا؛ فقد قال العلماء: إن جميع الفنون والصناعات التي يحتاج إليها الناس في معاشهم من الفروض الدينية إذا أهملت الأمة شيئاً منها - فلم يبق به من أفرادها من يكفيها أمر الحاجة إليه - كانت الأمة كلها عاصية الله (تعالى) .. إلا من كان عاجزاً عن دفع ضرر الحاجة، والمصالح لا تحفظ أو تبلغ إلا بأدوات صالحات، إقامتها إقامة للمصالح وبلوغ لمقصدتها، وإغفالها إغفال للمقاصد والمصالح على حد سواء.

*** المقاصد وغايتها المصالح: إقامة صرح مجد الإسلام على تحقيق المقاصد (المصالح):**

وقد قام صرح مجد الإسلام عدة قرون على مراعاة مقاصد الشريعة، كان المسلمون كلما عرض لهم شيء بسبب التوسع في العمران يتوقف عليه حفظ الأمر وتعميم دعوته النافعة قاموا به حق القيام وعدوا القيام به من الدين.

ومضوا على ذلك قرونًا كانوا فيها أبسط الأمم وأعلاها حضارةً وعمرانًا وبرًا وإحسانًا، إلى أن غلا أقوام في الدين واتبعوا سنن من قبلهم في إهمال مصالح الدنيا... وكان من أثر ذلك أن أهملت الشريعة؛ فلا توجد حكومة إسلامية على وجه الأرض تقيمها؛ لأنه لا يوجد من أهلها من يصلح لحكم الناس في هذه العصور التي اتسعت فيها مصالح الأمم والحكومات بالتوسع في العلوم والصناعات وارتباط العالم ببعضه ببعض. "العمران من الدين" .. شعار يطلقه الأستاذ الإمام لتحريك فعاليات المسلم والوعي بمصالحه والوعي بشئنه ومقاصده.

وقد يقال إذا كان المنقطع بعلوم الدين لا يأمن على عقيدته أن تذهب ودينه أن يفسد إذا هو تفكر في مصالح الدنيا وعرف العلوم التي لا تقوم هذه المصالح بدونها، فكيف يكون حال

من يدرسون هذه العلوم الدنيوية من المسلمين وليسوا على شيء يُعتدّ به من العلوم الدينية؟ لا جرم أن هذا قضاء على الإسلام بأنه آفة العمران، وعدّو العلم والنظام، وهو قضاء جائر يبطله القرآن. إن القرآن ينبه إلى علوم العمران و"علوم الأمة" التي يقام بها العمران ويؤسس، وتثيد بها المصالح وتبنى، وتبلغ بها المقاصد وتُحفظ.

● ميزان المصالح والمفاسد:

وكان ذلك في العلاقة بين من يرى يتيمًا في بيته ويخاف أن يجور على حقه، كأن يأكل دون قصد من أمواله فيقع عليه الإثم، فكان الحل من عند الله (تعالى) بأن يعيش اليتيم في بيت كافله عزيزًا كريمًا كأحد عياله، ويسلم الكافل من أكل شيء من ماله بغير حق (التوحيد بين المصلحتين)، وأن يقوم بإصلاحه لكون الإصلاح لهم خيرًا؛ لإصلاح نفوسهم بالتهذيب والتربية، وإصلاح أموالهم بالثمن والتتمية، هو خير من إهمال شأنهم وتركهم لأنفسهم وحتى لا تفسد نفوسهم وتضيع حقوقهم.

السعي نحو المصالح والاجتهاد المقاصدي أصل بنياني من الشريعة وفطرة الخلق:

مضت حكمة الله أن تكون شريعته جامعة لمصالح عباد، جارية على سنن الفطرة المعتدلة التي فطرهم عليها ولله العزة بمنع الناس من بعض الشهوات وبتكليفهم الإنفاق من فضول أموالهم، وبتكليفهم تحري الإصلاح. ومن حكمته أنه منعهم ما يضرهم من ذلك، وكلفهم ما فيه مصلحتهم، وأن هداهم إلى وجه منفعة النافع ومضرة الضار.

قضت حكمة الله أن يبين هذا في الأحكام المتعلقة بمصالح الناس ومنافعهم؛ بأن يوجه عقولهم إلى ما في الأشياء من المضار والمنافع، "فيظهر لكم الضار منها أو الراجح ضرره؛ فيعلموا أنه جدير بالترك فتتركوه على بصيرة واقتناع بأنكم فعلتم ما فيه المصلحة، كما يظهر لكم النافع فتطلبوه".

(5) رؤية العالم بين النموذج المعرفي

وبنية المشروع الإصلاحي

يحيط بهذه الرؤى السابقة نموذج معرفي بمفرداته وعناصره، ومشروع إصلاحي كأحد النواتج عن رؤية العالم وعملية تفعيلها على أرض الواقع. ونتناول هذين الأمرين على النحو التالي:

5/أ) النموذج المعرفي لدى الأستاذ الإمام بأركانه الأربعة وسقفه في رؤية العالم

في إطار التعرف على رؤية العالم ربما كان التساؤل حول المنتوجات التي تتولد عن هذه الرؤية وتشتق عنها؛ وهى أمور حقيقة بالبحث المتأنى وربما المستقل من الأسئلة التي يجب التوقف عندها للربط بينها وبين الرؤية الكلية للعالم، هل تقدم رؤية الأستاذ الإمام "نموذجاً معرفياً إرشادياً" ومنظومة من المفاهيم الحضارية الكبرى "مفاهيم المظلة" وبعض منظوماتها الفرعية من مفاهيم مشتقة؟ وهل تولد مثل هذه الرؤية الكلية ضمن ما تولد "منظومة إصلاحية" متكاملة الجوانب متنوعة المجالات متماسكة الأركان؟

أن ما قدمناه من رؤية كلية لعناصر ساحة حضارية تتعلق بأصول التوحيد الذي شكل مرجعية ضامة لتوحيد اتساق هذه الرؤية عن تنوعها، ومن رؤية لإنسان والكون والحياة، أو للتراب والإنسان والوقف على معادلة مالك بن نبي، هذه الرؤية للساحة الحضارية وعناصر الفعل الحضاري وتفاعلاته إنما تتربط بمنظومة سباعية شكله رؤية للعالم واضحة المعالم والمصادر والمرجعية تتشابه خيوطها من عقيدة واقعة، وشرعية رافعة، وقيم تأسيسية حاكمية، وحضارة فاعلة وشاهدة، وأمة جامعة، وسنة شرطية قاضية، ومتمان حاضنة حافظة، سباعية تتحرك في رؤية الأستاذ الإمام فتصل خيوطها بعناصر رحمها من نموذج معرفي إرشادي ومنظومة مفاهيمية حضارية، وبرنامج إصلاحي متكامل. وكان نسيج هذه المنظومات فضلاً من شبكيته، أمراً إتاحة

فعل هذه الدراسة توضح البنيان المعماري في هندسة رؤية العالم وتحريكها في الوعي وتفعيلها في السعي.

أولاً: النموذج المعرفي الإرشادي ومنظومة المفاهيم الحضارية الذي يتكون من عناصر خمسة هي كما بالشكل:



في هذا الشكل السابق يمكننا أن نجمع بين الاعتبار الذي يؤكد كيف تقدم تلك الرؤية للعالم عناصر "نموذج معرفي إرشادي" المعرفة فيبه والعلم منه "كلمة" عالية وصافية تشعل نيران ميزان

هذا النموذج والناظم المعرفي واضح المصادر في شرعته، وأعمال العقل، وفقه الواقع، يقع في سقفه ذلك النموذج التكويني الذي تمثله رؤية العالم والوجود الكلية رؤية توحيدية عميقة إذا ما صحت فعلت وإذا ما فعلت تفاعلت وإذا ما تفاعلت أثرت وكانت وكونت اتساقًا من الفاعلية والنشاط في الوعي والسعي فذا هو الوجود والعالم المسخر، وتلك حركة الإنسان الفاعل المتفاعل الفعال الواجب عليه أن يحمل معانتي التزكية والخلافة الإنسانية، يحمل كل ما يحفره للفعل والفعالية ويتنبه إلى كل معاملات هذا الفعل الإنساني وفاعليته، العقل والارادة حركة عمران دانية عقل عمرانى يدبر ويعمر، وارادة حقيقية فاعلة تستثمر وتؤثر، الشريعة تجعل من العمران من أهم واجباتها واصل من أصول بنيانها ومقصودها وإطار مفاهيمى يحمل كل معاني مفاهيم المظلة: التربية، الإصلاح، التجديد، التراث، الحضارة، التمدن، العمران، الثقافة، الخلاق، القيم، التاريخ الزمان، المستقبل .

ويشكل من خلال تلك المفاهيم الحضارية العامة منظومة دافعة لتأويل هذه المفاهيم في مرجعية صافية: العقيدة والاجتهاد والسنة والمقاصد، مرجعية توحيدية تجعل من هذه المفاهيم ذات ارتباط وثيق بعروة وثقى لا انفصام لها تحقق مضمون الاستقامة أصول الحركة والفاعلية العمرانية، ومن هنا فإنها تكون مفاهيم وشبكة قد تتخذ شكل شجرة المفاهيم من مفاهيم الجذر ومفاهيم الساق الواصلة، ومفاهيم الفروع المتوالدة، ومفاهيم الثمار النافعة، عمليات موصولة ومتواصلة تحقق للمنظومة المفاهيمية فاعليتها الاكيدة في هندسة العمران للإنسان والكون والحياة .

واطر تحليلية ومنهجية تشغل قواعد للتعامل ومداخل للتناول تشغل مفاهيم مثل العقل والشرع والوحي، والواقع ضمن أصول واصله بفقه حضاري متميز يحرك المفردات المفاهيمية ووحدات التحليل (الفرد، الجماعة، الأمة، الفكرة، التمدن والحضارة)

عناصر فاعلة في مناهج التعامل والتناول، إنها أصول للجمع بين قراء نين متصافين

كتاب الله المسطور (القرآن إمام المسلمين) وكتاب الله المنظور (آيات الكون) في وصل بين علوم الأمة والعمران وبين علوم المقاصد والوسائل، وعلوم الدين على مقتضاها ومقاصدها وعلوم الدنيا وعمرانها، وهى بفعلها ذلك إنما تشكل إمكانات واصله بين التنظير والواقع، فالعالم يهتف بالعمل والا ارتحل، أصول العلم النافع لم يكن إلا توليد لمنظومة أخرى تتعلق بقواعد التفسير في هذا النموذج المعرفي الإرشادي للشيخ الإمام إذ يحدد أصول ومناهج النظر ضمن مدخل سباعي جعلنا مفرداته الكلية موضع اهتمام الشيخ الإمام:

(العقيدة الدافعة، الشريعة الرافعة، القيم الحاكمة، الحضارة الفاعلة الشاهدة، الأمة الجامعة الواحدة، السنة الشرطية القاضية، المقاصد الحافظة). كل منها شكل بالاعتبار الناظم فيما بينها منظومة فرعية ضمن هذا البناء الهندسي العمراني الكلي يقصد إلى تفسير الواقع واحواه وظواهره تفسير أدق وأكثر تنظيما وأكثر عمقا وأكثر تفسيرية لا يفيد من كل عمل ألا أن يفسر الأحوال والمشاهدات والحادثات والنوازل في منظومة كلية لقواعد التفسير نظر أنها فاعلة التأثير عمليا وعمليا، نظريا وواقعا .

وولد كل ذاك شبكة لدى الأستاذ الإمام حملت عناصر اجدر بالتناول لديه وفى اجندته حددتها عناصر "المشروع الفكري "

لأستاذ الإمام والبرنامج والمشروع الإسلامي " ليؤسس في ذلك منظومة إصلاحية متكاملة، حاول قدر طاقته أن يحسن معمارها وهندستها الا انه من شان مفكري الإصلاح وتصورهم أن يحاول استيعاب فكرة الإصلاح كشان عام شامل في وجهته وادواته، ألا أن عملية التوقيع والتنزيل الإصلاحي تترك من الإشكالات الضاغطة هذا ما سنقف عليه على عقل المصلح خاصة لو كان فيلسوفا على حد وصف العقاد للأستاذ الإمام إلا يحسن الكلام في كل

شيء وكل متطلبات مشروعه الإسلامي خاصة حينما يكون تحت الوطاة، هذا ما سنقف عليه من خلال استراتيجية حوارية تطرح أسئلة حول المشروع الإصلاحي وجدنا من الواجب ان نعرض بعض انتقادات هنا وهناك لمن قيم منظومة اختار الأيام في رؤية العالم وارتباطها بمشروعه الإصلاحي .

وهل كان عن الأستاذ الإمام لو كان حيا بينما أن يتعرف على مآلات مشروعه الإصلاحي الذي كان أحد المواد المفضلة للسجال بين فرقاء تنازعاته الاتجاهات وحاولت ان تختص به التوجهات واختطف مشروعه الإسلامي او يكاد وتبقى منه من كثرة الشد والجذب تشرذمت وتمزقت، وبدا لكل فريق يقتنص كلمة من هنا أو من هناك يلزمه ما لا يلزم، و يقوله ما لم يقل، او يأول ما كتب ما لم يرد فصار مشروعا للسجال والحروب الأهلية الفكرية اكثر من كونه مشروعا إصلاحيا حمل بذور مشروع قابل للتكامل وربما الاكتمال والتكميل. وبدا الشيخ الإمام يتفرق مشروعه بين القبائل الفكرية .

البحث في المشروع الفكري والإصلاحي للشيخ الإمام يحمل عناصر أجندة بحثية تستحق الدرس والفحص والبحث، فهل لنا ان نتلقف خيط الإصلاح من الأستاذ الإمام نصوب ونسدد ونقارب ما امكننا ذلك ضمن حركة وعى منهجي من غير إلزام بنتائج توصيل إليها بحكم السياقات التاريخية التي أحاطت به، أو شغلت تفكيره وشخصيته الا ان الثابت في مشروعها الإسلامي ليس بالشيء اليسير، وهو امر يجب ان نفتح فيه ملف ذاكرة مشروعات الإصلاح والنهوض .

5/ب) المشروع الإصلاحى وبرنامج الإصلاح التعليمى والتربوى

فى إطار رؤية الأستاذ الإمام الموصلة بأصل رؤيته الكلية للعالم، تأتي كمحصلة رؤيته فى مشروعه الإصلاحى، والذي أسسه على قاعدة من التربية فإن "... من يريد خير البلاد فلا يسعى إلا فى إتقان التربية، وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه.. بدون إتعاب فكر ولا إجهاد نفس.." ويستدرك على نفسه حتى يوضح موقفه على أرض الواقع فى فكرتين ألهما قبل الاحتلال وثانيهما من بعده.

ففى الأولى يؤكد "... لم تكن الثورة من رأيي.. ولكن لما منح الدستور انضمامنا جميعًا إلى الثورة كي نحمي الدستور..".

وبعد فشل الثورة العرباية واحتلال الإنجليز لمصر بدا له يتحرك صوب وطأة الاحتلال بما شكله ذلك من عناصر ضغوط حضارية على رؤية الإمام، وهنا برزت الفكرة الثانية: "... إن العمل على إخراج الإنجليز من مصر عمل كبير جدًا، ولابد فى الوصول إلى الغاية منه من السير فى الجهاد على منهاج الحكمة، والدأب على العمل الطويل ولو عدة قرون ...؟!".

وفى سياق معاشة محمد عبده ظروفًا اجتماعية وسياسية وحضارية متردية تمثلت فى ضعف السلطة وتدخل الأجانب وجمود وركود المجتمع تحرك الأستاذ الإمام لينظم أفكاره حول مشروعه الإصلاحى بدءًا من المفهوم ومرجعية (الإصلاح والتغيير الاجتماعى)، ودور الفرد فى إصلاح المجتمع، والتأسيس المعرفى والمنهجي للمشروع الإصلاحى، وآليات الإصلاح والتغيير الاجتماعى، وأهداف ومقاصد المشروع الإصلاحى.

جمود المسلمين وعملية الإصلاح:

إن الأزمة السابقة لو تأملنا حال السلطة فيها لرأيناها أهواء وأغراضًا تنبعث عن شهوات نفسانية وأغراض جاهلية لا يراعى فيها نظام ولا قانون ولا ينظر إلى تأسيس إصلاح أو تسمية

منفعة فلا يتسلط المتسلط إلا رغبة في الاقتدار على السلب واكتساب الأموال من وجوها غير القانونية ليقتر على طلب اللذائذ ويتمكن من استيفاء جميع مقتضى الشهوات.

إن هؤلاء الأفرنج يأخذون مطاعنهم في الإسلام من سوء حال المسلمين مع جهلهم هم بحقيقة الإسلام. إن القرآن نظيف والإسلام نظيف وإنما لوثة المسلمون بإعراضهم عن كل ما في القرآن واشتغالهم بسفاسف الأمور.

منذ بعد المسلمين عن دينهم واتبعوا أهوائهم وشهواتهم رغم أنهم لم يبينوا ما هو القبيح الذي من أجله هجروا الدين وما الذي رأوه فيما اتخذوه بديلاً.

فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح نقد أقامك منه على سبيل الحجة وقاضاك إلى العقل ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟

إننا طرقتنا المجالس لخصوصية في بواطن البيوت والأندية العمومية في الأماكن العامة لا نعدم قائلاً عن نفسه أنه قرأ من العلوم معقولها ومنقولها وطالع الكتب العالية ووقف على المباحث الجلية وكشف بواطن الدقائق الخفية واستطلع الأسرار وكان مع ذلك مشهوراً في زمن الاشتغال بالفطنة والذكاء وتوقد الفكر وقوى الحافظة ونحو ذلك - وهناك العديد من هذه وإن اختلفت في أوصاف الخير التي تصبغها على أنفسها ولو سألت كل واحد من الذين يظن فيهم رصف العلم والتعليم لرأيتهم يحدث عن ذاته.. ويقول لو كان الناس يسلكون هذا السلك الذي أسلكه لانتشر العلم وعمت المعرفة.

لكننا إذا ربطنا للواقع رأينا أن التأليف والتصانيف مفقودة وإن وجد منها شيء كان ناقصاً إما من جهة المعنى وإما من جهة اللفظ بحيث لا تدل على ما قصد منها فيكون كعدمه والطالبون للعلوم على اختلافهم قاصرون عن إدراك ما أضاعوا عمرهم فيه.

ومن الناس من إذا ذاكرته في المنافع العامة والمصالح الكلية أخذ يشرح غوامضها ويبين الواجب فيها والطرق الموصلة إلى جلب المنافع ورفع المضار والوسائل المؤدية إلى تقويم حال الأمم وارتفاع شأنها من رفع منار العدالة وبث روح العلم وتقرير المساواة وما شاكل ذلك ثم إذا فوض إليه أمرته تلك المصالح رأيته أبعد الناس عن الخير وأقربهم إلى الشر واستتكف عن المساواة واستهجن معنى العدالة وإن كان يعبر عن نفسه بلفظها وسار مع أغراضه وألفاظه وجعلها قانوناً يتبع...

ومنهم من يقول أن كل معيبة أُلّت بالنوع الإنساني لم يكن منشؤها إلا التباغض والتحاسد وتفرق الكلمة والميل إلى المنافع الشخصية وعدم الاكتراث بمنافع العامة ونحو ذلك من الأقوال الصحيحة المسلمة ثم لو أتى إليه مطالب بحق في وقت الذاكرة لرأيته بعد هذه المطالبة أمراً كبيراً ثم بعد إنقضائها.

لو دعي إلى إغاثة ملهوف أو إزالة مكروه عن بعض إخوانه أو الداخلين تحت إمرته رأيته يتعالى ويعتذر أو يمتنع ويستكبر ويقول ليس هذا من خصائص ولو طلب إلى تأسيس أمر خير يفيد الزراعة أو الصناعة أو يساعد على التربية الحق يستصغر ذلك ويسفه آراء طالبيه ومنهم من يرشد إلى العدل ويدعو إلى الإنصاف ولكن إذا عرض له حق في طريق مفضة خاصة له دامس الحق برجله طلباً للوصول إلى غايته وكأنه يعد ذلك من قبيل الإنصاف الذي يدعيه.

ولكننا لا نحب ذلك ونود أن يكون الفعل أكثر من القول وأن يكون كل شخص من أبناء بلادنا مجداً فينبيل الفضيلة الثانية التي يلهج بتحسينها وإجراء مقتضاها في تكون بذاتها شاهداً عدلاً على أهليه صاحبها لما يقول وتنتشر الأعمال الصالحة المنطبقة على الشرائع والقوانين فتسير المصالح على صراط مستقيم وينال كل شخص حظه الحقيقي من قمرات أتعابه الآتية

على وجه منتظم فيعود النفع على العامة والخاصة أما الفخفة وكثرة اللغو فإنها من شدة العجز ولا تعيد ولا تبدي.

كان الإسلام ديناً عربياً ثم لحقه العلم فصار علماً عربياً بعد أن كان يونانياً ثم أخطأ خليفة في فهم السياسة فاتخذ من ... الإسلام سبيلاً إلى ما كان يظنه خيراً له، ظن أن الجيش العربي قد يكون عوناً فخليته علوى، لأن العلويين كانوا ألصق بيت النبي (ص) فأراد أن يتخذ له جيشاً أجنبياً من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستبدها بسلطانه ويصطفها بإحسانه فلا تساعد الخارج عليه ولا تعين طالب مكانة من الملك وفي شق أحكام الإسلام وسهولته ما يبيع له ذلك، هناك استعجم الإسلام وانقلب عجمياً.

وقد أكثر من ذلك الجند وأقام عليه الرؤساء منه فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء واستبدوا بالسلطان دونهم وصارت الدولة في قبضتهم.

أما العلم فلم يحفلوا بأهله وقبضوا على يد المعونة وحملوا كثيراً من أعوانهم على أن ينجوا في سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيلهم ليعدوا من قبيلتهم ثم يضعوا للعامة في الدين ما يبغض إليهم العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه ودخلوا عليهم من باب التقوى وحماية الدين زعموا الدين ناقصاً ليكملوه أو مريضاً ليعلوه أو متداعياً ليدعموه أو يكاد ينقض ليقيموه.

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضللين وتعاون ولالة الشر على مساعدتهم في جميع الأطراف واتخذوا من عقيدة القدر مثبطاً للعزائم وغلاً للأيدي عن العمل.

هذه السياسة- سياسة الظلمة وأهل الأثرة- هي التي روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه وسلبت من المسلم أملاً كان يخترق به أطباق السموات وأخلدت به إلى يأس يجاور به ... فجل ما تراه الآن مما تسميه العامة إسلاماً فهو ليس بإسلام وإنما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج.

ومن ثم لنستطيع أن نقول أن علة عرضنا للمسلمين عندما دخلت على قلوبهم عقائد أخرى ما كنت عقيدة الإسلام في أفئدتهم وكان السبب في تمكنها من نفوسهم وإطفائها لنور الإسلام من عقولهم هو السياسة كذلك هي تلك الشجرة الملعونة في القرآن: عبادة الهوى واتباع خطوات الشياطين هو السياسة.

إن حال الأمم التي تعودت على أن يكون زمامها بيد ملك أو أمير أو وزير يدير أعمالها بدون أن يكون لها دخل في رؤية لصالحها لا يمكن أن يطلب منها الدخول في أعمالها العامة وإلا فسدت.

فلابد من قرون تبت فيها العلوم وتهذب العقول وتذلل الشهوات الخصوصية وتوسع الأفكار الكلية حتى ينشأ في البلاد ما يسمى بالرأي العام العمومي.

ولكن أرباب الأفكار يرمون أن تكون بلادنا وهي هي كبلاد أوربا وهي هي لا يnehون في مقاصدهم ويضربون أنفسهم بذهاب أتباعهم أدراج الرياح ويضرون البلاد يجعل المشروعات فيها على غير أساس صحيح فلا يمر زمن قريب إلا وقد بطل المشروع ورجع الأمر إلى أسوأ مما كان فيفوت الزمان وهم على حالهم القديم وكان لهم إمكانية أن يكونوا على أحسن منه. من يريد خير البلاد فلا يسعى لها في إتقان التربية وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه إن كان طالباً حقاً.

إن أول ما يجب أن يبدأ به: التربية والتعليم لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة مؤيدة بالضريحة وحمل الحكومة على العدل والإصلاح ومنه تعويدها الأهالي على البحث في المصالح العامة واستشارتهم إياهم في الأمر بمجالس خاصة تنشأ في المديريات والمحافظات وليس من الحكمة أن تعطى الرعية ما لم تستعد له فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بماله قبل بلوغه سن الرشد وكمال التربية المؤهلة والمعدة للتعرف المفيد.

إن المعهود في سير الأمم وسنن الاجتماع أن القيام على الحكومات الاستبدادية وتقييد سلطتها وإلزامها الشورى والمساواة بين الرعية إنما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا إذا فشا بينهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأي عام.

إنه لم يعهد في أمة من أمم الأرض أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أمتهم بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم واستثنائهم بالحياة والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك.

إن إصلاح البلاد ماديًا وأدبيًا لا يكون ذلك إلا بحفظ الشرائع والقوانين وتوسيع نطاق المعارف وإطلاق الحرية السياسية التي يعتبرونها حياة للأمة.

وحدد ضمن مشروعه الإصلاحي في مجالات حاول نظمها في ذلك المشروع منها ما يتعلق بالجانب السياسي، ومنها ما يتعلق بالقضائي والمالي والاقتصادي ومنها ما يتعلق بالمسألة الاجتماعية والمرأة والأسرة، ومنها ما يتعلق بالجانب اللغوي والقيمي والثقافي فضلاً عما أكدته من عمليات الإصلاح الديني والأزهر الذي كانت موضع اهتمامه وهمه أبدى كل ذلك ضمن مشروع إصلاحي تدريجي تربوي قد يبني الأمة وربما يهادن الاحتلال وفي كل الأحوال ظل مشروع عبده مشروعًا إشكاليًا لأنه نظر إلى الغرب نظرة مركبة حيث كان موضع التحدي.

ثالثاً - محمد عبده بين رؤيته الإصلاحية ورؤيته للعالم: الحق المر والنقد

المر: رؤية نقدية في نص

قدم الأستاذ الإمام رؤية واضحة ومنظومة كونية للعالم بكل عناصر الساحة الحضارية؛ من رؤية للكون والإنسان والحياة في سياق يرتبط برؤية توحيدية تستند إلى آثار التوحيد في حركة الحياة وفاعلية الإنسان وعمارة الأكوان. ومن هنا كان لابد للوصل بين تلك العناصر جميعاً سواء في الرؤية التوحيدية أو في رؤية عناصر الساحة الحضارية أن تكون هناك من الروابط والوشائج التي تصل فيما بين هذه الرؤى جميعاً. فتمثلت هذه الوشائج في عمليات ثلاث:

الأولى - "استخلاف" يعد بمثابة عقد إلهي يضطلع فيه الإنسان بفعله وفاعليته، أما الثانية فتتمثل في "التزكية" التي تشكل إعداداً وتربيةً وتعليماً وتزكية للإنسان حتى يتدرب لبلوغ الغاية العمرانية، ومن هنا برزت الوصلة الثالثة والتي تتمثل في تلك "الحركة العمرانية".

ومن عمق هذه الرؤية التي تلمس فيها الأستاذ الإمام موضع الأزمة فيها: أزمة الإنسان في التفاعل ضمن الساحة الكونية وطاقة الحياة المستمرة، وكذلك الأزمات التي تطول منظومة سباعية تمثلت في: النسق العقيدي، وبينان الشريعة، ومنظومة القيم، وبناء الأمة، وفاعلية الحضارة، وقضاء السنن، وحفظ المقاصد، من خلال إدراك الأستاذ الإمام لتلك الأزمات تولد مشروعه الإصلاحي الذي ارتكن إلى إصلاح الفاعل الأساس في الساحة الحضارية؛ ألا وهو "الإنسان"، واختط لذلك منهجاً تربوياً يحرك الإنسان إلى فاعليته وفاعليته، وبدا كيف ينسج بين عناصر تلك المنظومة السباعية حتى تحفز هذا الإنسان وتجعله مستخلفاً ذكياً عمرانياً، فانطلق إلى البناء الفكري الذي تتشكل على قاعدة منه عناصر الفاعلية الإنسانية، فأقر بإصلاح الفكر، وإصلاح اللغة، وإصلاح الإرادة. وفي مجال الأدوات استقر على تأسيس حركة "إصلاح ديني"

ذات أبعاد متعددة من قبيل إصلاح الأزهر، وإصلاح القضاء. فكأنه أراد أن يقدم عناصر الفعل الحضاري في فاعليات الإنسان الذي يملأ الوعاء المكاني والزمني بقدراته وطاقاته، ذلك أن قيمة الزمان وقيمة المكان لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال فعل وفاعلية الإنسان.

وطفق بعد ذلك يحدد المجالات التي يمكن أن يصار إليها في عملية الإصلاح (اللغة، الفكر، العقل، السياسة، القضاء، الأزهر) إلا أنه -وهو يطبق الإصلاح من خلال رؤيته للعالم- كان عليه ألا يمارس فقط ما يمكن أن نسميه "بفقه الإصلاح النظري" أو سجلاته، ولكن كان عليه أن يقوم بعملية أخرى تتعلق "بفقه واقع الإصلاح"، وكان عليه من بعد أن يواصل التفكير بعملية الإصلاح، فيقوم بتنزيل هذه الرؤى الفكرية على الواقع.

وهنا بدت المشكلة للأستاذ الإمام حينما رأى سلطة وطنية ضعيفة تابعة وأزهر جمد وعجز عن القيام بدوره الإصلاحي، ومحتلاً جثم على أرض مصر يأكل خيراتها وينهب مواردها. فإذا، كان السؤال الذي طرحه الإمام أو طرح نفسه على الإمام هو: كيف ينزل مشروعه الإصلاحي على ذلك الواقع، ومن هنا تمثلت اختياراته وخياراته التي كانت سبباً في لغط شديد حول الأستاذ الإمام وتعاونيه مع الإنجليز (!).

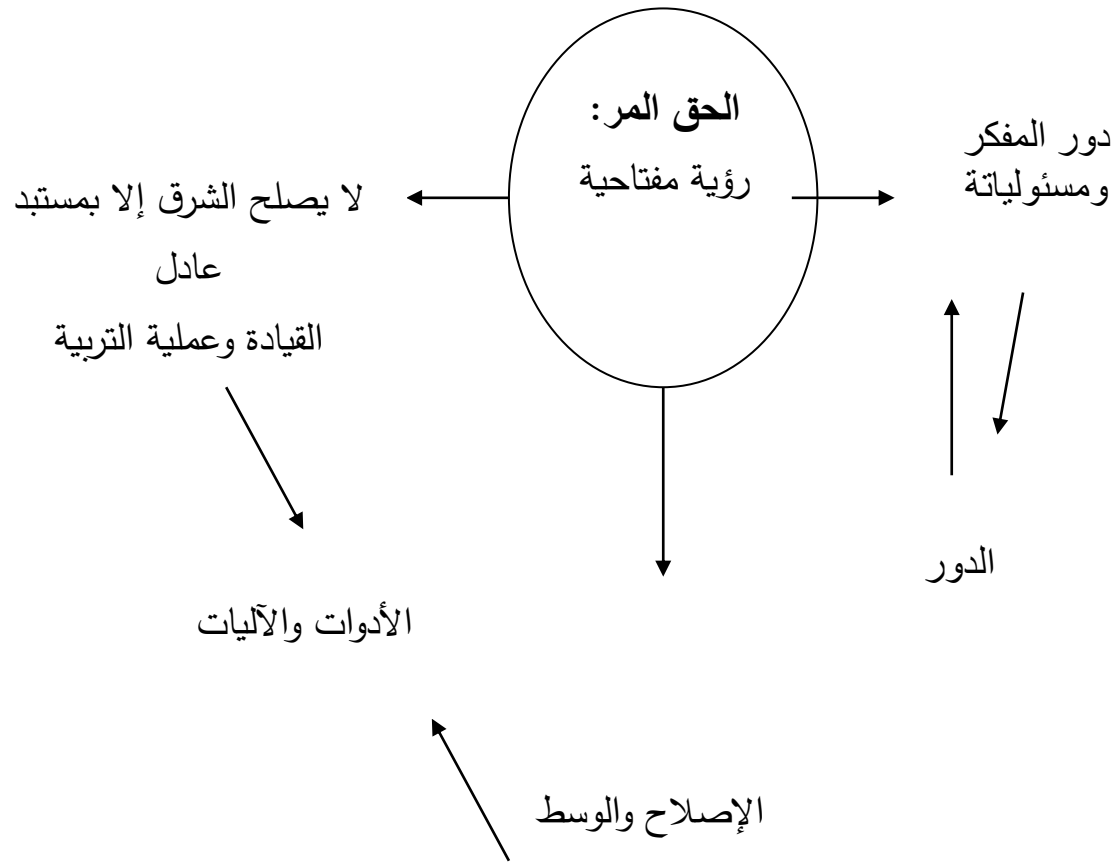
وفي هذا السياق فإنه من الأهمية بمكان أن نؤكد على نص جامع سماه الإمام "الحق

المر:".

هذا النص كتبه في بدء مشروعه الإصلاحي، والسير قدماً فيه بالبدا بتطبيقه على أرض الواقع، فجمع بين الرؤية للواقع، وأصول التعامل معه في سياقات ضامة لفقه الحال وفقه المجال، وفقه المال، في تواصل يؤكد ارتباط رؤية العالم بالمشروع الإصلاحي عند الشيخ.

وتدور في ذهن أسئلة حول المشروع الإصلاحي للأستاذ الإمام؛ سواء بنية هذا المشروع أو بيئته أو وسائله وأدواته وآلياته، مشروع بدا يترسم تحت "الوطأة"، أحاطت به أطراف وأدوات

وبيئة، شكّل "الاحتلال" وسطاً ضاغظاً بكل تجلياته ومظاهره، وشكلت الوسائل التي أفرزها خطة طريق الإصلاح ومساره التي تشكلت في "التربية"، نجد مقال "الحق المر" بعناصره ضاماً وجامعاً لهذه الأفكار جميعاً؛ بحيث يشكل نصّاً مفتاحاً في هذا المقام "Key-Text"، وضمن آلية الاستدعاء نستدعي نصين آخرين: أحدهما يحدد تصور الشيخ لدوره النقدي وأداء النصيحة من خلال استعراض مشروعه الفكري والإصلاحي، ثم يأتي الآخر ليوضح تداخل الأدوات والوسائل في عملية تنزيل المشروع الإصلاحي على أرض الواقع: "لا يصلح الشرق إلا بمستبد عادل".



خطاب الوطأة والوعي

في إطار خطابات الحيرة والالتباس

طريق الإصلاح

تحت وطأة الاحتلال
الوسائل وعدم تأهل الناس
(التربية)

الرؤية الكلية للإنسان

"الإنسان واللسان"
(قيمة الإنسان في حرته)

تقدم الأمم الغربية

وتخلف الشرق
(حال الانبهار)

الحالة العقلية

والثقافية والسياسية
(الفرقة والسجال والحيرة)

الظلم والاستبداد

حجة للأجنبي علينا
(الاستعمار والقابليات)
(استغلال القابليات)

الحالة التي تفرز مزيدًا

من التخلف: استقرار الظلم،
التفنن في الترف، قابليات الاستبداد،
الجباية والبطالة، الفساد الأكبر والفساد الأصغر،
متوالية الظلم والاستبداد
والفساد والترف

(التفسير للدورة الخلدونية)

الحق المر

حال التقليد واستسهاله

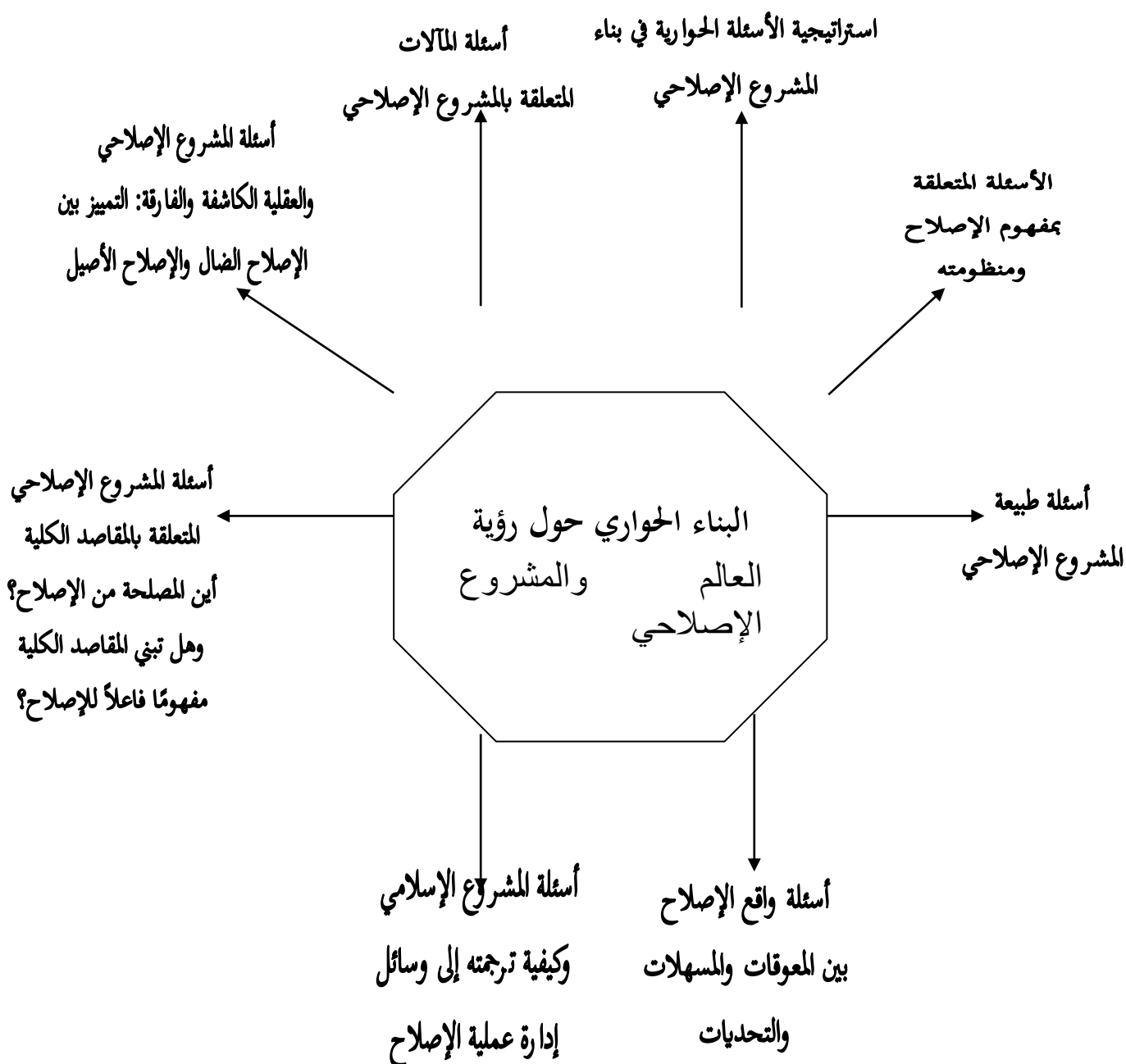
(المغلوب مولع بتقليد الغالب)

لا بالتعرف على الأسباب ولكن باستسهال
تقليده فيما لا تثقل تكاليفه عليه)

قابليات الاستعمار

وتقبله بالنفوس

واستمراية الاستبداد
(الاستعمار والاستبداد)



ويمكن في هذا السياق تصنيف تلك الأسئلة التي يمكن أن نطرحها؛ سواءً تعلقت بمفهوم الإصلاح ومنظومته أو تعلقت بطبيعة ذلك المشروع وواقع الإصلاح بين المعوقات والمسهلات، أو تلك الأسئلة التي تتعلق بإدارة عملية الإصلاح، كذلك أسئلة المشروع الإصلاحي ومقاصده، والمشروع الإصلاحي ومآلاته، والمشروع الإصلاحي بما يميزه من عقلية كاشفة وفارقة بين ما يمكن تسميته بالإصلاح الضال والإصلاح البصير، والإصلاح الزائف والإصلاح الأصيل ... جملة من الأسئلة إذا ما حاولنا أن نطرحها على الأستاذ الإمام الذي كتب هذا المقال الذي نوهنا عنه **(الحق المر)** فإننا نتساءل -ومن منطلق الحق المر أيضًا- حول تلك الرؤية النقدية لمشروع الإصلاحي!

ولعل من مبدآت أو محركات هذه الرؤية النقدية هو التساؤل حول: كيف اتحدت الغايات النظرية لكل من الأفغاني والشيخ محمد عبده واختلفت بهم السبل الموصلة إلى هذه الغايات، وبالذات سبل الوصول إلى التحرير السياسي والوطني لشعوب الشرق، فرأها الأفغاني في الثورة ورأها عبده في التربية والتعليم؟.

ظهر هذا التمايز منذ اللحظة الأولى التي استقل فيها محمد عبده بالعمل في مصر، وتبلور في مقالاته بجريدة "الوقائع المصرية" منذ سنة 1880م. [تحديد هذا التاريخ أمر على جانب كبير من الأهمية لأنه يعود بفكر الأستاذ الإمام حول هذه القضايا إلى الفترات التي سبقت فشل الثورة العربية واحتلال الإنجليز لمصر؛ ومن هنا وجبت رؤية هذا الموقف ضمن سياقاته في: موقفه من فكر الثورة العربية، وموقفه من الثورة عندما فشلت واعتقل مع قادتها، وموقفه السياسي في فترة منفاه منذ نهاية سنة 1882 وحتى نهاية 1886، وموقفه السياسي بعد عودته من المنفى وحتى وفاته في العام 1905]. فهو يلح في هذه اللحظة المبكرة على عدم أهلية البلاد بعد لنيل النظم التي ترتبط بالحياة الدستورية والنيابية فيؤكد "وليس من الحكمة أن تعطى الرعية

ما لم تستعد له، فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بماله قبل بلوغه سن الرشد وكمال التربية المؤهلة والمعدة بالتصرف المفيد.. إن المعهود في سير الأمم هو سنن الاجتماع: القيام على الحكومات الاستبدادية وتقييد سلطاتها وإلزامها الشورى والمساواة بين الرعية، إنما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا إذا فشى فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأي عام".

وقد يفسر البعض هذا الإلحاح على عدم أهلية البلاد بعد لنيل مثل هذا النظام على أساس الأفق الإصلاحى المحدود الذي كان يعيش فيه الشيخ، والذي كان لا يرى فيه إلا قضايا الإصلاح التربوي.

ثم كانت الصورة التي تم بها فشل الثورة العربية وهزيمتها أمام الجيش البريطاني المسلح بالعتاد الحديث، كان فشل هذه الثورة على صورة تعذر على الناس تصورها أو تخيلها، فاهترت كياناتهم من الأعماق وتزلزت معتقداتهم ومسلماتهم التي ظنوها قد تحققت وحقت لهم الحرية والاستقلال، ولكن الأمر الذي زلزل كيان الرجل وهزه من الأعماق هو كما صرح بعد ذلك: خيانة الأصدقاء والأولياء حتى "تقطع حبل الأمل وانفصمت عروة الرجاء وانحلت الثقة بالأولياء..".

لقد طرح محمد عبده جانباً -وهو في سجنه- إيمانه بالثورة وآماله فيها، لينضم ذلك إلى ثقته المفقودة في هؤلاء الذين كان يرثى لحالهم كثيراً ممن وصفهم بالجمود والانغلاق، وحينما ذهب الشيخ منفياً في 24 ديسمبر 1882 كان قد قدر التفرغ لدعوة الإصلاح، وبالذات عن طريق التدريس والتربية والتعليم. وحينما عاد الشيخ محمد عبده من منفاه سنة 1899 إلى مصر لم تكن الأحوال فيها مختلفة اختلافاً كبيراً عن تلك التي عاشها قبل أن يغادرها سنة 1882م، فمأساة الهزيمة العربية والذهول الذي صاحبها كان لا يزال مخيماً على البلاد، فلقد مضت سنوات ولم ترحل قوات الاحتلال ولم يكن ضمير مصر قد اختلج معلناً بقوة الرفض للاحتلال والمقاومة له.

في هذه الظروف عاد محمد عبده إلى مصر وتأكد لديه منطلقه الفكري مصلحاً، بواسطة التربية

والتعليم متعهدًا لسلطات الاحتلال -بواسطة الذين سعوا لإعادته والعفو عنه- بأنه لن يشتغل بأمور "السياسة العليا".

عاد عبده وهو أشد إيمانًا بأن القيمة الوحيدة الضرورية والمُجدية هي "التربية" وأن الأمل الوحيد الأكيد هو في الصفوة المثقفة المستنيرة، وأنه لا سبيل لنهضة مصر وتحريرها من الاحتلال إلا بالسير الطويل في هذا الطريق نحو هذه الغاية. فموقف محمد عبده من السياسة هو موقف يرحب به المحتل؛ لأنه ليس مجرد اعتزال فردي للسياسة، وإنما هو دعوة لهجران العمل السياسي والاستعاضة عنه بالعمل التربوي، وتعليق الآمال على التحرر بواسطته من الاحتلال ولو بعد قرون.

والحقيقة أننا ننضم لرأي الدكتور عمارة أن المحتل كان أبعد نظرًا من محمد عبده ومدرسته فيما يتعلق بهذه الأمور، فمحمد عبده قد أخطأ عندما اعتقد أن الإصلاح بواسطة التربية يديل عن العمل السياسي المباشر ضد سلطة الاحتلال.

في هذا السياق انطرح كل تلك التساؤلات المشار إليها، وأراد محمد عبده أن يرد عليها في مقالة أسماها "الحق المر"، فهو منذ البداية يصدر تلك المقالة بـخطاب الوطأة والسجال بشأن الاحتلال الأجنبي، وعلى حد تعبيره: "كل فريق يتشيع لرأيه ويشيد بفكره.. حتى أشكل الأمر واختلف الشأن فانخذل سلطان الحقيقة وأدى ذلك أن ظل المصري حيران مبهورًا لا يدري على أي طريق يعرج، وبأي نجم يهتدي، وأي سبيل يقتصد".

ومن ثم يقارن الأستاذ الإمام بين حالة الحرية التي وصلت إليها الأمم الغربية إلى ما هي عليه من نوال تلك الحرية والتمدن، بينما بقي الشرق مندمجًا في جهالاته لا يدري ما تلك المزية وما مقدارها. وفي هذا السياق يذهب الأستاذ الإمام يستفيض في بيان وكأنه يشرح مقولة ابن خلدون: "المغلوب مولع بتقليد الغالب في عوائده وزيه ونخلته وسائر أحواله".

"حتى اختلطت الأمم الغربية بأهله (يعني أهل الشرق) فلاحظوا من خلال اختلاطهم وتداخلهم شعاع تلك الحرية، فانبهرت عيونهم واندeshوا لبهم، ولم يقفوا على حقيقتها وحقيقة الطرق التي توصل إليها، فعظم شأن الأجنبي في أعينهم وصار بالنسبة إليهم في درجة أرقى من درجتهم، فأهملوا البحث عن الأسباب التي ارتقت بها تلك الأمم إلى مراكزها والطريقة التي أنالتهم تلك الحرية.. فاستسهلوا تقليد الأجنبي فيما لا تثقل تكاليفه عليهم، فعمدوا إلى ظواهر التمدن فتحلّوا بها، وأحسنوا التقليد له في الزي والمعاملات البسيطة والتكلم بلغاته والتمسك بتقاليده، حتى صار الأجنبي عندهم الإمام الذي يهددون به ويققدون، فتعالت مرتبته عندهم، وانتَهز هذه الفرصة لسلب أموالهم واستعبادهم وتنفيذ أغراضه ومأربه، مستبشراً مسروراً بكونهم تعلقوا بظواهر التمدن دون بواطنه، وأنهم لم يلتفتوا إلى سلوك الطريق التي أوصلت إلى الحرية والتمدن الحقيقي، واهتدأهم لذلك مما يعطل عليه أغراضه وأطماعه. فامتألاً الأجنبي ثروة من جهة ما يستنزفه من دم الأهالي بسطوته وعلو كلمته ومن جهة ما يسحبه من ثروة الحكام المستبدين جزاء معاونته لهم على ظلمهم للأهالي... كل ذلك والأجانب عون عليهم لا يرشدونهم إلى طريق نجاحهم ولا يهدونهم إلى معرفة حقوقهم".

وكان الأستاذ الإمام يؤكد على وعيه بأن الاحتلال والاستعمار قد استفاد من القابليات للاستعمار في ترسيخ مصالحه فكانت أمنية الوطني على حد تعبيره "أن ينسلخ عن جنسيته ووطنيته ليخلع عليه الأجنبي خلعة الحماية بعد أن يستفرغ منه جميع ثروته في سبيل الحصول على ذلك حتى يمكنه أن يعيش متحفظاً على هذه الحياة الدينية بين أولئك الذئاب، ثم ينظر من جهة أخرى إلى الحكومة فيرى شر ما رأته عين؛ يرى السلطان والقوة فيها للأجنبي، والرياسة والإدارة في يد قبضة من الرجال قد سبكتهم يد الاستبداد وأخلصتهم جسمًا طائعًا متحرّكًا تديره كيف شاءت .. بل هو مسخر، آلة لجمع المال، فيدلي دلوه في بئر ثروة الأهالي فيستتبط منها

أموالهم معكّرة بدمائهم وأحشائهم، ثم يصب بها في حوض الاستبداد المنخرق". وكان الأستاذ الإمام يشير إلى أن الاستعمار والاستبداد إن هما إلا كيانات ذوا مصالح متحدة ومتوحدة.

وكما تحدث الأستاذ الإمام عن قابليات الاستعمار فقد تحدث كذلك عن قابليات الاستبداد؛ "وكانه في حال من العبودية المختارة... وشعوب تصنع الاستبداد". فبعد عرضه لحال مصر وأنواع المهترئات وحال الترف التي شاعت وانتشرت، وحال من الشهوات ذاعت، يتحدث كيف كان شأن الوطنيين إذاك وحالهم:

".. هل كانوا ساخطين على تلك الهيئة؟ هل فزع منهم فازع يطلب رفع الظلم ونوال الحقوق الطبيعية؟ هل قام قائم منهم فيواجه الاستبداد يدفعه أو يخفض من صورته؟ هل أظهر أحد منهم شكواه؟ هل تألفت لهم قلوب يتعاونون بها على احتمال المظالم؟ كلا بل كانوا بكما لا ينطقون ولا يتحركون، كانوا ظالمين مظلومين، عونًا للظالم على أنفسهم يتهللون بمظاهر الاستبداد المزخرفة، كأن ذلك لم يكن مأخوذًا من دمائهم وأموالهم.

وكانت ألسنتهم لا تنطق إلا بالثناء، وأقلامهم لا تطرز إلا المدائح، وإشاراتهم لا تصدر إلا بالاستحسان، وأمعنوا في هذا الباب حتى سئمت نفوس المستبدين ذاتهم من ذلك وابتذلوه، وأذلّوهم مذلة من لا يقبل منه حرفًا ولا عدل..".

وقد كان من ضمن الوسائل التي تفنن فيها الاستبداد أنه اتخذ من العُمد وأعيان المديريات مديرين وحكامًا، لأجل أن يتوصل بهم إلى سلب ما بقي لدى الأهالي من ثروة أو قوت؛ لكونهم أدرى بأحوالهم من بقية الحكام وأعلم بمواضع الثروة، فرأيناهم أشد وطأة على المصريين، وأنفذ سلاحًا في جلودهم، وأجرأ يدًا في استلاب أموالهم من سواهم".

كأنه يتحدث حديث ابن خلدون عن أن الترف والظلم مؤذنان بخراب العمران، وكأنه يتحدث أيضًا حديث ابن خلدون عن الجباية والبطالة، وعن تلك العلاقة بين الفساد الأكبر

والفساد الأصغر، ومتوالية الظلم والاستبداد والفساد والترف: "فكانت رجال الحكومة والإدارة عبارة عن سلسلة من النهب والتعدي تظلم الحلقة الكبرى منها الحلقة الصغرى بالتدريج، وهكذا إلى أن تصل إلى الفلاح المسكين فتطبق على عنقه حتى تسوخ أقدامه في الطين ليستخرج لهم منه ما يريدونه من ذهب الأرض ممزوجاً بدمه ودمعه وعرق جبينه، فينتقل ذلك من الحلقة الصغرى إلى الحلقة الكبرى وهلم جرا.. حتى يصلوا إلى يد الحاكم القابض على أطراف السلسلة".

"وما الذي يؤمنهم إن عادت لهم تلك الحال أن يكونوا هم أول مسلوب أو أول مقتول؟ هل اتخذوا عقدًا وميثاقًا من الظالم أن يكونوا سالمين غير مسلوبين، مترفعين غير متضرعين؟
فالظالم لا عهد له، وقد رأوا بأعينهم من كان أعظم منهم مرتبة وأعلى منزلة لم يحلموا بنوالها في نومهم، كيف أخذ في ليلة واحدة فُقتل ثم سُلِب وكان أعزَّ صديق وأكبر معين.

وفي رؤية مقاصدية للاحتلال والقابليات له يؤكد الإمام: "تلك كانت حالنا في الزمن الماضي، أقمنا عليها نقبَل اليد التي تذبج، ونلثم الذيل الملوث بدمائنا، حتى غاضت ثروة البلاد وأنثقت بالديون، فوجد الأجانب لهم حقًا شرعيًا بالتدخل في أمورنا وإدارة شئوننا حفظًا لأموالهم، إلا أنهم كانوا مقتصرين على هذا الباب فقط، ليس من غرضهم ولا من مأربهم إصلاح حال المصري ونواله الحرية وارتقائه في المدينة بل كان عامة سعيهم في ازدياد نفوذهم ونوال حقوقهم، فاشتد الضنك ووصلنا للنتيجة الناشئة عن ذلك الإسراف في الظلم والتبذير في الأموال، وما كدنا نخطو خطوة في طرق التنبه لأحوالنا والنظر في لم شعثنا، وما كاد أولو البناهة منا يجروُن على الحاكم فيلتمسون منه إجراء الإصلاح، وتشبيد الحرية، كأن ذلك الطريق الوحيد لنوالها، وكأن حاكمًا مطلقًا يعطي الحرية للأمة من تلقاء نفسه، إنما تتشيد الحرية بيد الأمة لا بيد الحاكم".

هذا التقرير الأخير المهم من الشيخ، ألا يصح القول على قياس منه: إنما يتشيد الاستقلال بيد الأمة لا بيد "المحتل"؟، خاصة أن الشيخ جمع أعلاه بين المستبد والمحتل في سلة فساد وإفساد واحدة؟.

ثم بعد ذلك يقوم الإمام بالحديث عن الثورة العرابية ونقدها ونقد أربابها الذين كانوا يمثلون -على حد قوله- حالة "اندفاع على غير استعداد لها، ولا تروُّ في أمرها" بل أكثر من ذلك فإنه يؤكد أنه لم يكن لهم رأى ثابت ولا مقصد معين بل كانت أعمالهم وأفكارهم بنت الساعة ورببية الدقيقة. ووفق رأيه لم يكن يتيسر لهم مراجعة رأيهم وتعزيز مبدأهم في لجج ذلك التهور وتيار تلك السطوة.

فكان حال المصريين أنهم يطلبون الحرية بواسطة الاستبداد. ثم بعد ذلك تحدث عن وقوع الاحتلال متحدثاً عنه بلغة عجيبة وغريبة:

"ثم انحاز قسم من المصريين إلى الحاكم تعلقاً بأسباب حفظ الحالة التي كانوا عليها والتمسك بمراكزهم التي نالوها، وطلب من دولة الإنجليز أن تساعد على إطفاء الثورة فحضرت عساكرهم وحصلت الحرب... فهزمت العساكر المصرية ودخلت الإنجليز بعد أن سفكت دماؤها وأنفقت أموالها، فلم تفعل ذلك إنجلترا محبة في سواد عيون المصريين، بل لأغراض لها دفعتها إليها. فلما دخلت رجال الإنجليز حقنت الدماء وأغمدت سيف الانتقام وأخذت تباشر ما في نيبتها من الإصلاح، وإقامة الحرية على مقتضى ما نالته أمم أوروبا بأتعاب جسيمة وتكاليف شاقة.. ولكنها وجدت في المصريين مختلفي الرأي ومتفرقي الكلمة، وجدت بينهم علو كلمة الأجنبي والدخيل، ووجدت أشبه شيء بمدينة بابل يوم تبلبلت الألسنة.. واشتبه عليها الأمر فلم تجد أمامها رجالاً تنشر الإصلاح بواسطتهم إلا من وجدتهم قابضين على أزمّة الإدارة والحكومة، ولم

تجد من المصريين نفورًا منهم وانحرافًا عنهم.. فلم تر الإنجليز بُدًا من مباشرة الإصلاح على أيديهم.

ومال المصريون إلى جانب الأجانب الذين لا يهتمهم من حال المصري إلا أن يكون تربة نفوذهم وقربان سلطانهم، كما تعودوا عليه من زمان بعيد يمتصون دمه بأنبوية الامتيازات الأجنبية. وكلما حاولت إنجلترا أن تساوي بين المصري والأجنبي وتخفف شيئًا من صورة تلك الامتيازات قامت مكان الأجنبي الذي يموه على المصريين أن لا غرض له إلا مصلحتهم خدمة للإنسانية.. كل ذلك ضامن لراحة المصريين وحسن مستقبلهم كما يزعمون، ثم يطلب منا بعد ذلك أن نتابعه على رأيه ونسايره في طريقه ونعصده شوكتة ونفوذته لثبات تلك الحالة حتى لا تبتلعنا الدولة الإنجليزية، فخفي على بعض النبهاء منا طريق النجاة للمصريين وأخذوا يصيحون مع الأجنبي المشروح أمره، وانتهزوا فرض حرية الجرائد للقدح والطعن والصراخ والعيول. وكل ذلك ينحصر في أمرين.. طلبوا الجلاء، وتقصير الإنجليز في مباشرة الإصلاح.

أما الجلاء فهو أمر واجب على كل مصري وطني أن يسعى للحصول عليه من أبوابه وفي أوقاته. ولا ينتنى عنه إلا كل ساقط النفس في مراتب الاجتماع البشري، بل هو من الأمور الطبيعية ألا يقبل أحد حكومة الأجنبي عليه. ولكن ينبغي أن نسعى لذلك بالوسائل الفعالة المؤدية إليه بدون أن ينشأ عن ذلك ضرر، وأن يكون في الوقت المناسب، فإن الأمور مرهونة بأوقاتها".

بعد هذا العرض السهب للحال يذيل في النهاية كل ذلك بتقريره أننا في حالة من عدم الاستعداد والتأهل: "والبرهان قائم بأننا لمن نبلغ درجة الحرية التي نتمتع بها الآن، وما تبعها من الإصلاح، إلا بواسطة الإنجليز دون سواهم، وهم لا يستطيعون ذلك إلا بوجود جيش الاحتلال بيننا، ولولاه لما رضى حكامنا لإشارة الإنجليز في إجراء الإصلاح المطلوب ولولا

دخول الإنجليز لما تيسر لنا أن ننال شيئاً من ذلك لأنفسنا؛ بدليل أننا أقمنا نحتمل الهوان والذل ولم نتفادهما، فضلاً عن أننا كنا مساعدين للظالم على أنفسنا".

يتضح من ذلك الاستعراض ضرورة النقد المر للحق المر؛ ذلك لما نشهد من تناقضات حادة بين الكلمات والجمل، وبين المعاني والسطور، فلا يمكن الحديث عن الشيء ونقيضه إلا بالاعتبار الذي يؤكد محاولة الإمام القيام بتبرير موقفه من الاحتلال البريطاني، وغاية الأمر أن نؤكد علي قصور هذه الرؤية التي تشير إلى إصلاح الإنجليز في مصر ودورهم البناء علي حد ما يري الأستاذ الإمام، فكيف تمكن المواقفة بين صدر المقال ونهايته؟ وبين أوائل الجمل وأعجازها؟ لا يمكننا أن نتحدث في البداية عن "خطر المستعمر والمستبد" ثم نتحدث في النهاية عن "إصلاح المحتل وتعليمه الحرية وإجبار الحكام علي ذلك".

إن هذا الخلل البناني في هندسة الأستاذ الإمام لمشروعه الإصلاحية أمر يجب التنويه إليه لما له من آثار لا تقف عند حدود زمانه، ولكن قد تمتد لزماننا. وربما النموذج العراقي يمثل دالة في هذا المقام.

ماذا عن الحق المر فيما أسماه الأستاذ الإمام "الحق المر"؟ ماذا عن نقدنا لتلك الرؤية الإصلاحية التي جعلت التربية بديلاً عن الإصلاح السياسي وجعلت من الاحتلال غطاء لذلك المشروع؟

ألا يعد ذلك تقصيراً من الأستاذ الإمام في تفعيل "رؤية العالم" التي حملها؛ توحيداً وتحريراً للعقل والفكر والإرادة، كيف إذن يتحرر كل ذلك في حالة تتسم بسطوة الاحتلال وغلبته؟ وهل الحل في ذلك أن نهادنهم أم نقاومهم؟ ما هو فعل الحرية كقيمة تأسيسية الذي يتحدث عنه الأستاذ الإمام؟

هل التربية تأتي منفصلة عن حركة الإنسان اليومية ومواقفه حيال من يستعبده سواء كان ذلك المستعبد سلطة مستبدة أو المحتل المستعمر؟ هل نهج ذلك الإنسان الذي يهادن الاحتلال تحت دعوى أنه غير مهياً للمقاومة أو ينل الحرية ليس إلا تكريساً لحالتي القابلية للاستعمار والقابلية للاستبداد؟ هل هذا ما يمكن أن يؤدي بإنسان التوحيد أن يكون عبداً لغير الله محتلاً مستعمرًا ومناطق التوحيد ألا يكون عبداً إلا لله؟ وهل كان على الإنسان الفاعل أن يستكين ويتهاون في مواجهة المحتل الغاصب؟ وهل ذلك يعد فعلاً حضارياً إيجابياً يستثمر كل عناصر الساحة الحضارية؟ وهل يعد هذا الموقف "استخلاقاً" بينما هو في حقيقة أمره استعباداً؟ وهل تلك "تزكية" للنفس الإنسانية أو تربية لها؟ وألم يكن "الاستعمار" بكل حركته قد خرب من جملة ما خربه ذلك المعنى الذي اغتصبه من جملة ما اغتصب، تلك الكلمة الشريفة (ال عمران والاستعمار)، وهو في حقيقة أمره ليس إلا استخراباً واستعماراً لا عمراناً ولا إنماءً.

هل ذلك من مقتضيات العقيدة الرافعة؛ وتأكيدات الشريعة الرافعة، وعناصر قيم تؤكد على معانٍ للاختيار والإرادة والحرية، وعناصر أمة لا تعرف إلا تماسكاً وعزة، وعناصر حضارة تحمل شهوداً وفاعلية، وعناصر سُنن تؤكد أنه: ما كان هناك احتلال إلا وكانت المقاومة سُنّة في مواجهته؟ وهل كان الاستعمار والاحتلال ليس إلا تضييعاً للمقاصد وإهداراً للمصالح التي ترتبط بالدين والنسل والنفس والعقل والمال. لماذا لم تؤد تلك الرؤية للعالم إلى تفكير إصلاحي ينهض أول ما ينهض بمقاومة المحتل المستعمر؟

تلك كانت أزمة محمد عبده حينما استخرج عناصر مشروعه الإصلاحية تحت شدة وطأة الاحتلال، فبدأ الإصلاح بذلك منقوصاً، وربما كان نكوصاً. وكيف يمكننا أن نوصل رؤية للعالم قوامها قيم التوحيد والحرية والعدل ونقرنها بالاستبداد والاحتلال وفي نفس الرؤية يقترن الاحتلال بالتحريم والإصلاح؟ فهل بالفعل لا ينهض بالشرق إلا (مستبد عادل)؟

محمد عبده بين رؤيته للعالم ومشروعه الإصلاحية

ولعلنا قد نلخص حال محمد عبده من باب أنه تنازعت رؤيته "أصيلة" للعالم ورؤية "واقعية" للإصلاح، فأدت به إلى حالة فكرية تنازعت مشروعه الإصلاحية. فهام العلمانيون يتحدثون - ومن كل طريق - عن أن مشروعهم يستند إلى بذور في مشروع محمد عبده الإصلاحية، وهام أولاء السلفيون ينظرون إلى تربة مشروع الإمام الإصلاحية من أنها تربتهم الذين هم قادرون على تمهيدها وتجهيزها والزرع فيها.

هل نفهم ذلك التنازع إلا كتعبير عن تنازع في عقل محمد عبده ذاته وفي تصوره لمشروعه الإصلاحية، وكأن الإمام محمد عبده قد كوّن رؤية للعالم تقضي إلى تحرير الإنسان من كل طريق، وأن الإنسان الحر هو أداة في تكوين المؤسسة الحرة، والمؤسسات الحرة هي أدوات وآليات لعملية الإصلاح، إلا أنه حينما باشر عملية الإصلاح ذاتها خطب الناس "خطاب اللحظة" و"خطاب الوطأة"؛ وطأة الاحتلال ووطأة الضغوط الحضارية التي ضغطت عليه بشدة، وهو ما جعلنا تختتم هذا البحث بحوار بين الباحث ومحمد عبده، وهذا الحوار شكل آخر من بناء "النص المترابط". ويقوم هذا النص المترابط بجملة من الآليات لبناء ذلك النص في حوار مع الأستاذ الإمام.

أولى هذه الآليات - آلية الاستنتاج.

ثانية هذه الآليات - استراتيجية الأسئلة.

ثالثة هذه الآليات - المسكوت عنه، ومنه، وفيه، وعليه.

رابعة هذه الآليات - النصوص التي تمثل تطوراً في الحالة الفكرية للإمام محمد عبده؛ بعضها ظن الإمام في أوانه أنه صحيح ثم عاد عنه في آونة أخرى حينما وُجّه بواقع ممارسة الإصلاح.

الآلية الخامسة- وهي ضرورة قراءة النصوص ضمن سياق المؤلف وسياق الفكرة وسياق الواقع التاريخي.

ضمن هذه الأدوات والآليات يمكننا بناء ذلك النص الحوارى بين الباحث ومحمد عبده لا نبغى منه محاكمة للأستاذ الإمام فنحن أقل من ذلك، وغالبًا من يتحدث عن الأستاذ الإمام ويقول إنه قد أخطأ في كذا وقد أصاب في كذا، إنما يتحدث من مقاعد الراحة. وبعد مرور زمن، فنحن الآن نحتفل بمرور مائة عام على الأستاذ الإمام، ومن هنا كان غرضنا من النص الحوارى أن نقدم سياقًا -ولو بسيطًا- لحديث العبرة من تأسيس الأستاذ الإمام لرؤية العالم من جانب وارتباط هذه الرؤية بمشروعه الإصلاحى من جانب آخر.

وهو حديث ينصرف إلى مقتضى الاعتبار المنهاجى من دون أن نقدر للأستاذ الإمام كل عمل فكرى ومعرفى وأخلاقى قد قام به أو عليه. وفي هذا المقام وجب علينا أن نتحدث عما يمكن أن تؤكد عليه كيف نزيد مشروعاتنا الإصلاحية والمشاريع الفكرية الكبرى ومفكرينا الكبار الذين قدموا أو كادوا أن يقدموا رؤى إصلاحية متكاملة؟

تتضمن تلك التفرقة بين المفكر المعملى والمفكر الحركى المعارك والمعاش، -كما يشير إلى ذلك الحكيم البشرى- وضرورة التحامها في رؤية المشروع الإصلاحى وتقويمه. كذلك فإنه من الأمور المقررة في هذا المقام والمتعلقة برؤية العالم أن يتصور المفكر دوره ووظيفته في أمته وعمليات إصلاحها، هذا التصور يحقق الواسلة بين أنساقه الفكرية والواقع الذى يتفاعل معه، إنه الأمر الذى يشير إلى "المفكر ودوره ومسئوليته في المجتمع"، على ما يشير شريعتي.

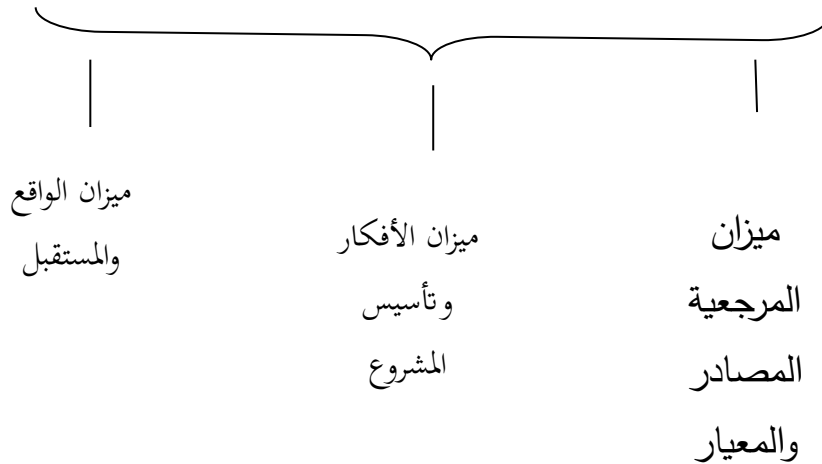
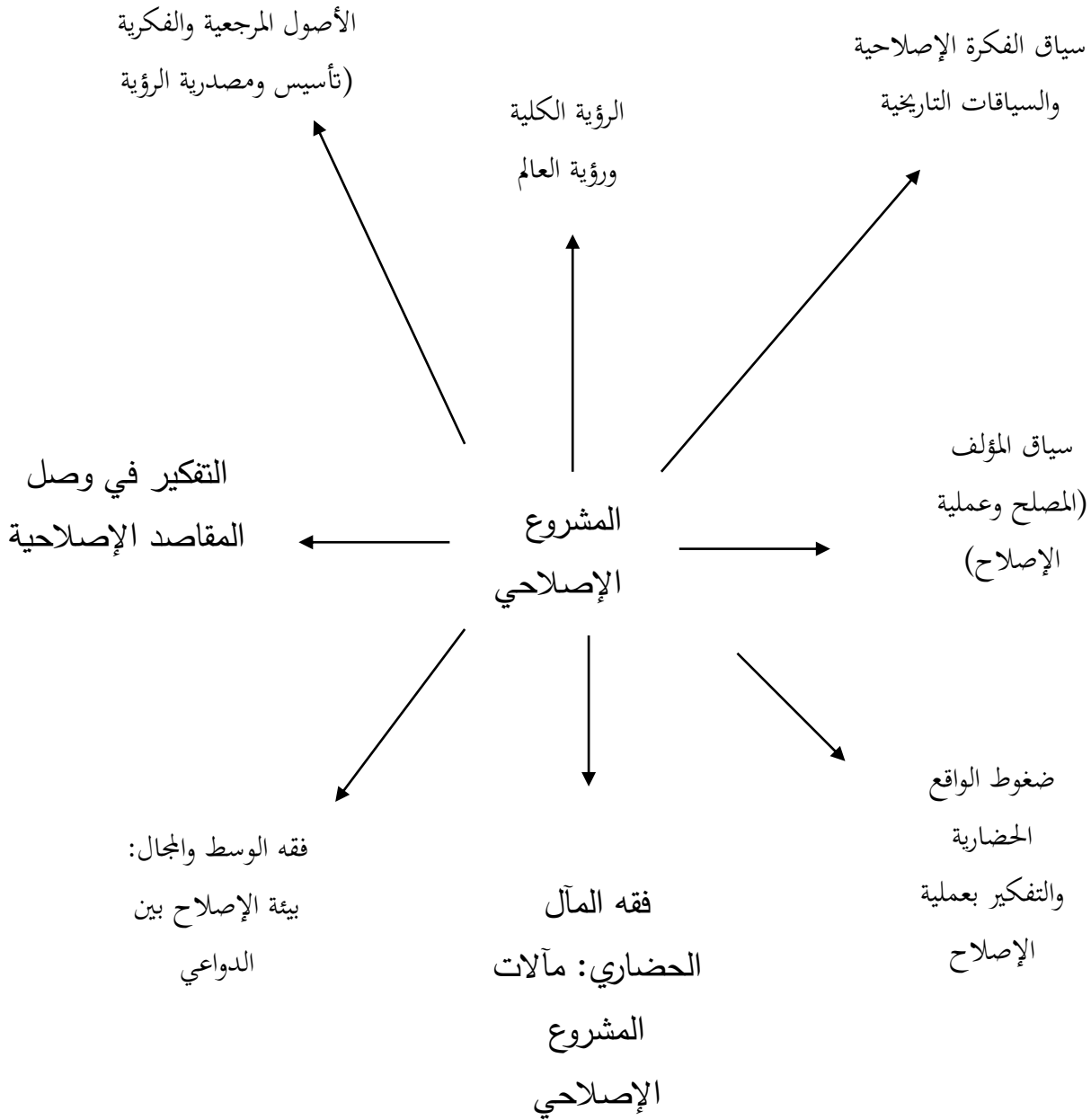
أما النقطة التى يمكننا أن نختم بها فإنها تتعلق بتدبر فقه المآل فإن كان الشيخ الإمام قد استحدث أصولاً لفقه الواقع والحال، واستوعب فقه الوسط والمجال والتفاعلات فيه، فإنه وجب على الباحث في نطاق ما يمكن تسميته بالقراءة الفاعلة أن يؤصل معاني "فقه المآل"؛ أي ما آل

إليه فكر الأستاذ الإمام وما تركه من آثار على الخريطة الفكرية والاتجاهات الثقافية والتي شكلت مادةً خصبة لعناصر سجال وتباين بين تلك الاتجاهات. وجب علينا أن نتعرف على قدرة الشيخ الإمام على أن يحول الرؤية الصافية للعالم التي قدمها استنادًا إلى أصوله المرجعية الفكرية من الشرع الإسلامي، ورؤيته في نقد الواقع والحال الذي شكل وسطًا ومجالاً لمشروعه الإصلاح، فنؤكد على سؤالنا: "هل نجح الشيخ الإمام في ترجمة هذه الرؤية للعالم إلى مشروع إصلاحي واضح المعالم بين القسّمات محدّد الغايات والمقاصد؟

إن هذا الشّأن الأخير سننتطرق فيه إلى نوع آخر من أشكال الاستدعاء، ولكنه -في هذه المرة- هو استدعاء للشيخ الإمام ترجمةً وأفكارًا، سيرةً وسيرة، إلى أرض الواقع الذي نعيش فيه، والمآلات التي تتركها فكره. ذلك في شكل سيقوم الباحث فيه بمحاورة الشيخ الإمام حول قدرته على ترجمة هذه الرؤية لمشروع إصلاحي وفاعلية هذا المشروع الإصلاحي وهذه الأفكار على أرض الواقع.

ومن هنا ستقوم حوارًا افتراضيًا تم بين الباحث والأستاذ الإمام نعبر فيه عن كل عناصر المسكوت عنه ووفيه وعليه، واللامفكر فيه بشأن الأستاذ الإمام، أو ما شاع في تقييمه هنا أو هناك لموقف سياسي أو ممارسة سياسية.

ميزان المشروع الإصلاحي



رؤية العالم ومشروع الإصلاح

في هذا السياق الذي يؤكد على مضمون رؤية العالم عند الأستاذ الإمام فإنه من خلال ذلك البحث نستطيع أن نقول إنه لا يمكن فهم المشروع الإصلاحي للأستاذ الإمام إلا بفهم الرؤية الكاملة والكافية لرؤية العالم عنده، وبما يؤصل هذا المعنى الذي يؤكد أن تلك الرؤى الإصلاحية ستثير في كل آن عدة إشكالات وجب على المصلح أن يجيب عنها:

الإشكال الأول - يتعلق بثنائية الداخل والخارج.

الإشكال الثاني - يتعلق بـ: هل يتم الإصلاح من أسفل أم من أعلى.

الإشكال الثالث - يتعلق هل يتم الإصلاح من داخل النظام أم من خارجه.

الإشكال الرابع - هل يتم الإصلاح تدريجياً أم جذرياً.

الإشكال الخامس - هل يتم الإصلاح عنيفاً انقلابياً أم تريبوياً سلمياً.

الإشكال السادس - هل يتم الإصلاح دفعةً واحدة بكافة مجالاته أم أنه يمكن تجزئته، وإن كان من الممكن تجزئته فهل يمكن الحديث عن ميزان الأولويات على التوالي أم من الأفضل أن يكون على التوازي. كذلك فإن من الإشكالات الكبرى التي يجب على

الإشكال السابع - المصلح أن يقف عندها هو الإشكالية المتعلقة بأدوات وآليات الإصلاح،

وماذا عن آليات الإصلاح إن فسدت، ووسائله إن عقلت؟!

وكذلك فإنه يجب على المصلح أن يتبصر ملياً حول غاياته الإصلاحية ومقاصده الكلية من عملية الإصلاح؛ فيصل بين المقاصد والوسائل وصلاً جميلاً يحقق المقصود ويستثمر كافة الوسائل المتاحة أداءً وفاعلية.

كما أنه كذلك يجب أن يقف عند ما يمكن تسميته بـ قابليات الإصلاح داخل المجتمعات،

وكيف تتكون وتتراكم وتتفاعل وتتحول من قابليات إلى مكانات، ومن مكانات إلى فاعليات؟!!

كما أنه يجب على المصلح أن ينعم النظر فيما لو كان هذا النمط من الإصلاح تحاربه أو تعوقه أنواع أخرى تتسمّى بالإصلاح وهي تفسد، فتكون لديه من العقلية الفارقة الكاشفة بين الإصلاح الضال والإصلاح الأصيل، بين الزائف منه والمكين فيه.

أبعد من ذلك عليه ألا يهمل كيف يتحرك وينطلق بمشروعه الإصلاحي -في سياق عملية اتصالية كبرى- بحيث يشكل له القاعدة التي يستند إليها وتحميه وتحصنه، كيف تولد عملية الإصلاح عناصر التصحيح الذاتي وقواعد التجدد الذاتي؛ بحيث تحدث تراكمًا إصلاحيًا يمنع ذلك المشروع من الانحراف في أي مرحلة من مراحله.

ضمن هذا السياق لابد أن ننظر إلى أن ذلك المشروع الإصلاحي للأستاذ الإمام يرتكن إلى قواعد نظريته للإنسان، وأن المشروع الإصلاحي يجب ألا يقتصر بأي عملية تقليد تترجم في النهاية إلى عقلية عوام أو نفسية عبيد أو تفكير قطيع.

ومن هنا بدا له في مشروعه الإصلاحي أن يحرر العقول كمقدمة لتحرير الإنسان، إلا أنه -وهو يؤدي ذلك- أداة، بنوع من المهادنة للاحتلال الإنجليزي الذي أحدث إشكالات في رؤيته الإصلاحية، بل في رؤية مَنْ عاصروه ومن لحقوا به.

والأسئلة لا زالت تُسأل حتى يومنا هذا. يعني ذلك أن المصلح في شأنه لابد أن ينظر إلى أن عملية الإصلاح ليست عملاً فردياً؛ ومن هنا تثار ثنائية أخرى: ثنائية الفرد أم الجماعة والمجتمع، وأين نحن من كل ذلك؟

إنها إشكالات لازلتنا في أتونها حتى هذا اليوم وكأن الزمان قد دار دورته، ولا زالت الإشكالات تدور هنا وهناك في العراق، في مشروع الشرق الأوسط الكبير في مشروعات "إصلاح" تقدمها السلطات والأنظمة، في مشروعات تقدمها قوى سياسية مختلفة واتجاهات فكرية وأيديولوجية ومتنوعة، في مشروعات إصلاحية غابت عن الأمة فغابت عنها الأمة!!

ربما يكون ذلك هو السبب الأساسي أو الرئيسي في تهاوى كثير من مشروعاتنا الإصلاحية. إن الأمر هنا قد يتعلق برؤية النبي شعيب -عليه السلام- لبرنامج الإصلاح: {
إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} سورة هود: الآية 88.

الإصلاح وفق دعوة النبي شعيب: (إرادة)، (واستطاعة)، (وآليات ووسائل وطاقات وإمكانات وقدرات)، (وتوفيق من خلال العمل بسنن الإصلاح وقوانينه الجوهرية) التي تتحكم به وفيه، وهو نوع من (قدرات في العمل) تؤكد أن من حُسِنَ التوكل الأخذ بأسباب الإصلاح، ثم تأتي بعد ذلك (حالة المراجعة والإنابة) التي تؤكد على عناصر التصحيح الذاتي والتجدد الذاتي .. عمليات بعضها من بعض تشكل رؤية إصلاحية لابد أن نتبصر كل إشكالاتها، فإن المصلح ليس هو ذلك الفرد الذي ينتج "أفكار إصلاح" أو ينطلق إلى جزء يصلح فيه، ولكنه لابد أن يؤسس قاعدة للإصلاح تستطيع أن تصمد في وجه تلك الإشكالات وتتفاعل معها بميزان الإصلاح حتى لا يسرق لمشروع الإصلاح كل مرة، ولا يُركب من صنوف فاسدة قد تدعي الإصلاح، ولا يرتكن إلى أدوات قاصرة وربما فاسدة.

إنها السنن التي علمنا إياها الإمام محمد عبده، وذكرنا بأهميتها، فإن للتفكير سنناً، وإن للتدبير سنناً، وإن للتيسير سنناً، وإن للتغيير سنناً، وإن للتأثير سنناً:

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } سورة الرعد: الآية 11، هل يمكننا أن نفهم في النهاية أن الإصلاح ليس إلا عملية إنسانية تقوم على: كيف يفكر الإنسان في عقيدته، وشرعته، وأنساق قيمه، ورؤى حضارته، وجامعية أمته، كيف يتعلم على سنن عمليات التغيير وبلوغ المقاصد الكلية من أقصر طريق وأعمقه وأفعله.

هاجس الغرب: رؤية العالم ورؤيته للاحتلال

هاجس الغرب عند الأستاذ الإمام دفعه أو ضغط عليه ضغطاً دافعاً تارة، وتارة أخرى

ضغط عليه ضغطاً مانعاً.

في الأولى رأى حال المسلمين وجمودهم وضعفهم ورأى حال الغرب فقرّر -وفق مسيرة
اجتهادية وجهادية وتجديدية- أن يصدع بتحرير الفكر والخروج عن ربة التقليد وعقلية
القطيع وحالة العوام، وجعل من تحرير الفكر مقدمة لتحرير الإرادة واستقلالها، فخاض في
مجالات التجديد على تنوعها ليؤكد على منظومة تجديدية فكرية ومؤسسية تتحرك وتفعّل
بجامع التربية وأصول التعليم، كان هذا هو التحدي الدافع الذي قدّم وبحقّ استجابة فاعلة في
أقصى صورها.

إلا أن الغرب كذلك توالى في تأثيره فضغط على الأستاذ الإمام ضغطاً مانعاً تمثل في
موقفه من الاحتلال البريطاني بعد عودته من المنفى، فمن نافلة القول أن نؤكد مع من ذهب
إلى أن الأمر الذي لم يختلف من حوله موقف الأستاذ الإمام هو عداؤه لاحتلال الإنجليز
مصر، وكراهية هذا الاحتلال، وثقته في زواله، وعمله من أجل حرية البلاد..

إلا أن الأمر المختلف عليه وفيه قد كان يتعلق "بالأسلوب" الذي يتبعه لبلوغ الغاية
وتحرير البلاد من هذا الاحتلال.. فبعد العودة من المنفى سلك طريق التربية والتعليم، وتكوين
القيادات الفكرية المتحررة والمستنيرة، ظنا منه أن هذا الطريق التدريجي سيثمر -ولو بعد
أزمنة طويلة- تحقيق حرية البلاد عندما تنمو شخصيتها فتصبح أعظم وأقوى من قدرات
الاحتلال. ضمن هذه الرؤية برزت مقولات بدت تبريرية لموقفه، ومراسلاته مع "بلنت" وعلاقاته
مع "كرومر" دالة في هذا المقام، وبدت رؤاه شبه متناقضة يتحدث فيها عن الأثر السلبي
للاحتلال والأثر الإيجابي له في آن واحد.

فبعد عودة الأستاذ الإمام إلى مصر في سنة 1889م ابتعد.. عن الاشتغال بأمور السياسة العليا والمباشرة، والتعرض لعلاقة الحاكم بالمحكوم ومنها الموقف من سلطة الاحتلال.. فما كان ذلك إلا مقدمة لانغماسه في السياسة وتولييه المناصب. وقد جعل الإمام موقفه هذا مذهباً يعتنقه وينصح به الآخرين لا في مصر وحدها، بل وفي غير مصر، ولا إزاء الإنجليز فقط بل وإزاء غيرهم من المحتلين الأوروبيين، فهذا موقفه الناصح لعلماء الجزائر يدور في ذات الدائرة (الجد في تحصيل العلوم الدينية والدنيوية)، (والجد في الكسب وعمران البلاد من الطرق المشروعة الشريفة)، يترافق مع ذلك (مسألة الحكومة وترك الاشتغال بالسياسة، وبهذا يتم لهم ما يرجون من مساعدة الحكومة الفرنسية لهم على ما قبله، فإن الحكومات في جميع الأرض يضيّقون على البلاد التي يستعمرونها ماداموا يعتقدون أن أهلها ساخطين عليهم، أو لهم ضلع مع حكومة أخرى.. وهذا الإعراض عن السياسة لا ينافي مخاطبة الحكومة فيما يروونه ضاراً بهم من القوانين والمعاملات..).

وفي حوار له مع بعض أنصار الاحتلال الإنجليزي في سنة 1898 يحدد رأيه في القضية، فيرفض مبدأ الاستسلام للاحتلال، والتسليم بأبديته، ولكنه يرفض أيضاً طريق العمل السياسي المباشر، والتهيج الوطني كطريق للتحرير من الاحتلال فيقول: "إن العمل لإخراج الإنجليز من مصر عمل كبير جداً، ولا بد في الوصول إلى الغاية من السير في الجهاد على منهج الحكمة، والدأب على العمل الطويل ولو لعدة قرون، لا أنه عمل صغير يكفي فيه الكلام في المجالس والكتابة في الجرائد..".

واقتضاه ذلك أيضاً رفضه للموقف الانعزالي الذي يرى مقاطعة الأجنبي لدوافع وطنية، وأفتى بالاستعانة بالأجانب المخالفين لنا في الدين والجنس، ولقد اعتقد كذلك أن التربية والتعليم وهي مطلبه الأساس لن تكون محل معارضة من سلطات الاحتلال.. ورأى أنه "إذا كان

أمر يصح أن يتلاقى فيه الطرفان، ويكون قاعدة للاتحاد فإنما هو التعليم العام؛ إذ لا يمكن أن يوجد تناقض بين مصلحة الإنجليز ومصلحة المصريين في هذا المقصد.."، .. ومدّ له في هذا الرأي رؤية للأمة الإنجليزية التي هي "من بين الأمم الأوروبية... تعرف كيف تحكم من ليس على دينها وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم.. فهي وحدها الأمة المسيحية التي تقدر التسامح حق قدرة".

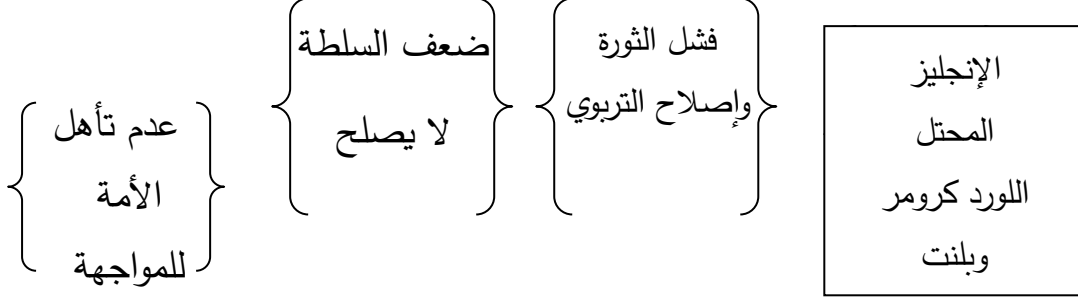
وهكذا اجتمعت العديد من العوامل الذاتية والموضوعية لتجعل للرجل هذا الموقف من سلطات الاحتلال، واشتبك مع الأمور وتشابكت لديه فاختلت شبكية رؤيته فلم تبصر غاية الإبصار، ولم تتضح الصورة غاية الوضوح.

وكما حدث هذا الاشتباك في المواقف حيال الحضارة الغربية، حدث حال اشتباك آخر في استخدامه المفاهيم، فتارة يستخدم المفهوم بمعانيه الغربية وتأويله بمعانيه الإسلامية المختلفة في العبارة الواحدة، وهو أمر يوهم بالمعاني ويغيم من المواقف حيال بعض ما قال وبعض ما أدى.

واشتبكت وتشابكت رؤاه تارة مع أستاذه الأفغاني وتارة مع تلاميذه على تنوعهم، فتطورت آراؤه وألزمت المعاني ورتبت المواقف في حال اشتباك أثر على النظر الكاشف والفارق. وإذا اتسمت رؤية الكلية للعالم عند الإمام بالصفاء فإن اشتباكها مع الواقع وتنزيلها الإصلاحية أصابه ما أصابه.

وفي إطار تفاعل عالم الأشخاص مع عالم الأحداث مع عالم الأفكار يأتي نموذج الأستاذ الإمام، الحدث الكاشف والفارق الذي يمثل اللحظة الكاشفة الفارقة هو "الاحتلال والنفى"، هذا الحدث ترك تأثيرات لا يمكن تجاهلها أو غض الطرف عنها في شخصية الأستاذ الإمام.

وكان لواقعة الاحتلال شخصها (الإنجليز، الثورة العربية، الخديوي) مثلث الاحتلال،
والثورة، والسلطة، والأمة وتشابكت الشخص وتشابكت الأطراف، فأثر كل ذلك -وتحت
الوطأة- على عالم أفكار الأستاذ الإمام:



الخطأ

الخطأ

الخطأ

الخطأ

استبعاد المقاومة استبعاد الثورة الجمع بين المتناقضين فقدان الثقة في
مكنت الأمة (العدل والاستبداد)

تراكمت لدى الأستاذ الإمام ضغوط الاحتلال وضغوط الفشل وضغوط
الضعف وضغوط الجمود، ومع تشابك هذه الضغوط، تشابكت الخيوط واهتزت
الشبكة واضطربت الرؤية، فأدى مع هذه الضغوطات إلى جملة من الاستبعادات
شكلت أخطاء جوهرية في مشروعه الإصلاحي والتفكير بوسائله وآلياته، وتنزيل هذا
المشروع على واقعه، ومن هنا يمكننا تفسير التباس رؤية الباحثين حول الأستاذ

الإمام، وبمطالعة سيرته والتوقف عند مآلات مشروعه فإننا نجد أن هذا الاشتباك خرج منه الأستاذ الإمام ولم يكسب إلى صفة أيًا من هذه القوى، فأدى ذلك إلى ضعف أثر مشروعه الإصلاحي في واقع الأمة، وبقي من مشروعه أجدته الفكرية التي ذكرت بموضوعات أهملت، ودعوته التجديدية التي بثت روحًا جديدة، ومشروعه الإصلاحي والتربوي الذي وجب الالتفات إليه.

الإنجليز

المحتل

اللورد كرومر - بلانت

المهادنة في مواجهة القوة

مهادنة

الاحتلال

الوهن
جمود العلماء
وتقليد العوام
عدم تأهل
للمواجهة الحضارية

فقدان ثقة
الأمة

الإصلاح
التربوي

فشل
الثورة

العراقيون
المقاومة
الفشل
↓
استبعاد الثورة
ثم استبعاد السياسة برمتها

تناقض

السلطة

التبعية

الخدوي

قائمة المراجع :

- . أحمد أمين ، محمد عبده : من زعماء الإصلاح ، (القاهرة : مؤسسة الخانجي ، 960) . .
- إبراهيم البيومي غانم ، الفكر السياسي للإمام حسن البنا ، (القاهرة : دار التوزيع والنشر الإسلامية ، 1992) .
- . إبراهيم عاتى ، الانسان في الفلسفة الاسلامية : نموذج الفارابي ، (القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ، 2005) .
- رضوان السيد ، رؤية العالم في الفكر الاسلامي المعاصر الحتميات المؤتلفة والإمكانات الأخرى ، (بيروت : ندوة تيارات الفكر الإسلامي المعاصر : قضايا الإصلاح والتجديد ، ابريل 2001) .
- . سعيد يقطين ، من النص إلى النص المترابط : مدخل إلى جماليات الغبداع التفاعلي ، (الدار البيضاء والمغرب : المركز الثقافى العربي ، الطبعة الأولى ، 2005 .
- . سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل ، إشكالية العلاقة بين العالم والسلطان ، تحت الطبع.
- _____، إشكالية التعامل مع السلطة: قراءة فى نصوص تراثية ومنهجية مقترحة، مركز البحوث والدراسات السياسية ،كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، 1996.
- . — ، العولمة والاسلام : رؤيتان للعالم : قراءة معرفية ومنهجية فى مؤتمر خريجي الجامعات الامريكية ، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، 1999)
- . عاطف العراقي (إشراف وتصدير) ، الشيخ محمد عبده مفكرا عربيا ورائدا للإصلاح الديني والاجتماعي (1849 . 1905) ، (القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، الطبعة الثانية ، 1997) .

. عباس محمود العقاد ، عبقرى الإصلاح والتعليم الاستاذ الإمام محمد عبده ، (القاهرة : وزارة

الثقافة والإرشاد القومى ، دار مصر للطباعة ، د. ت.) .

. عبد المتعال الصعیدى ، المجددون فى الإسلام من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر ، (

القاهرة : مكتبة الآداب ، 1996)

. عبدالله العروى ، مفهوم العقل ، مقالة فى المفارقات ، (بيروت : المركز الثقافى العربى ،

الطبعة الأولى ، 1996) .

. عثمان أمين ، رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده ، (القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ،

1996)

. فاضل رسول ، هكذا تكلم على شریعتى : فكره ودوره فى نهوض الحركة الإسلامية مع نصوص

مختارة من كتاباته ، (بيروت : دار الكلمة للنشر ، الطبعة الثالثة ، 1987) .

. محمد عبده ، سلسلة الأعمال المجهولة ، على شلش (تحقيق وتقديم) ، (بيروت : دار رياض

الريس ، 1987)

. — تفسير القرآن الحكيم : الشهير بتفسير المنار الأجزاء : الثانى والثالث والرابع ، (بيروت :

دار المعرفة للطباعة والنشر)

. — رسالة التوحيد ، (تقديم وتحقيق وتعليق) طاهر الطناحى ، (القاهرة : كتاب الهلال ،

فبراير 1963) .

. — ، الأعمال الكاملة (تحقيق وتقديم) محمد عمارة ، (القاهرة : دار الشروق ، الأجزاء من

الأول إلى الخامس ، الطبعة الأولى 1993) .

. محمد محمد البهى ، الإمام محمد عبده ، (القاهرة : وزارة الأوقاف ، دراسات إسلامية ، العدد

48 ، 1999) .

محمود شاكر ، رسالة في الطريق إلي ثقافتنا ، (القاهرة : دار الهلال ، 1987) .

الدوريات :

. أحمد زايد ، رؤى العالم ، المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد السابع والعشرون ، العدد الأول

، يناير 1990 ، ص ص 7.1 .

. - ، "الذات وما عداها " مدخل لدراسة رؤى العالم ، المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد السابع

والعشرون ، العدد الأول ، يناير 1990 ، ص ص 55 . 92 .

. أحمد عمر هاشم ، الإمام محمد عبده مجددا ، الأزهر ، رمضان 1426 هـ . أكتوبر 2005 .

الجزء التاسع ، السنة (78) .

. أحمد محمد سويدان ، محمد عبده والنهضة العربية الإسلامية ، الفكر العربي ، يونيو /أكتوبر

1985 ، العددان التاسع والثلاثون والأربعون ، السنة السادسة ، ص ص 156 . 169 .

. السيد حافظ الأسود ، تصور " رؤية العالم " في الدراسات الأنثروبولوجية ، المجلة الاجتماعية

القومية ، المجلد السابع والعشرون ، العدد الأول ، يناير 1990 ، ص ص 9 . 47 .

. بشير نافع ، الإحياء الإسلامي تراث وميراث ، وجهات نظر ، السنة السابعة ، العدد الثامن

والسبعون ، يولية 2005 ، ص ص 12 . 17.

. رجائي عطية ، الأستاذ الإمام محمد عبده : عبقرى الإصلاح فى رحاب القضاء ، الأزهر ،

رمضان 1426 هـ . أكتوبر 2005 . الجزء التاسع ، السنة (78) .

. عبد المعطى بيومى ، دور الإمام محمد عبده فى إصلاح المؤسسات ، الأزهر ، رمضان

1426 هـ . أكتوبر 2005 . الجزء التاسع ، السنة (78) .

. علا مصطفى ، رؤى العالم : نظرة إلى الزمان المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد التاسع

والعشرون ، العدد الأول ، يناير 1992 ، ص ص 29 . 59 .

. محمد عمارة ، محمد عبده : مشروع حضاري للإصلاح بالإسلام ، وجهات نظر ، السنة

السابعة ، العدد الثامن والسبعون ، يولية 2005 ، 6. 11.

. محمود حمدي زقزوق ، الإمام محمد عبده مصلحا ، الأزهر ، شعبان 1426 هـ . سبتمبر 2005

، الجزء الثامن ، السنة (78) .

. ميكائيل كيرنى ، رؤى العالم ، محمد أحمد غنيم ، (عرض وتحليل) ، المجلة الاجتماعية

القومية ، المجلد السابع والعشرون ، العدد الأول ، يناير 1990 ، ص ص 141 . 181 .

. نصر محمد عارف ، مفهوم النظام المعرفي، الكلمة ، العدد (23) السنة السادسة ، ربيع 1999

/ 1420 هـ .